
نظرات في
المجتمع الإسلامي
بروفيسور عبدالله الطيب

نظرات في المجتمع الإسلامي

نظرات في المجتمع الإسلامي

د. عبدالله الطيب

التمويل من
رشيد وعمر
لذكرى والدهم محمود عبدالكريم



The Trust for Printing and Distributing Works of Abdulla ElTayib

Printed in Sudan by: **NEW LIFE PRINTING PRESS**

الطبعة الأولى: القاهرة
الطبعة الثانية : الخرطوم ٢٠١٧م

فهرسة المكتبة الوطنية أثناء النشر- السودان
٣٠٥.٦١ عبد الله الطيب ، ١٩٢١-٢٠٠٣
ع ط . ن
نظرات في المجتمع الإسلامي = Views onIslamic Society/
عبد الله الطيب. - ط٢ . - الخرطوم :مؤسسة العلامة عبد الله الطيب الخيرية للطباعة والنشر، ٢٠١٧.
١١١ص ؛ ٢٠ سم
ردمك 978-99942-0-419-9
١. المجتمع الإسلامي. أ. العنوان.

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وله الحمد أولاً وأخيرًا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وبعد فهذه رسالة مختصرة أردت لأصف بها المجتمع الإسلامي الحاضر وصفاً موجزًا وأُشير إلى بعض ما يبدو لي من نواحي الضَّعف فيه عسى ذلك أن يعين أن يتنبَّه الغافلون ويعمل ....
والمؤمن مرآة أخيه.

وبالله التوفيق .

المؤلف،،،

عبد الله الطيب

Foreword

On June 8th 2000, just a few hours before his fatal brain haemorrhage, Abdulla said to me; "I do not want to travel from here for a whole month as there is a book I want to finish!" Three years later after he died and I received a delegation of condolence from four VIP academics from Kano, Nigeria - one of them, Professor Mohammad Thani Zahr eDin, said to me "Abdulla said he was writing a book about Islamic history, what became of it?" I replied, I did not and was been so busy nursing him, had not had time to sort out his many manuscripts.

One year later, I found, written in pencil, the text of this little book. When shown to Professor Abdel Rahim Ali, he commented "it seems the first page is missing."

Rather than «invent» a new page, we have decided to publish the script as it was found. I ask the reader to accept my apology on behalf of my beloved husband Professor Abdulla El-Tayib.

Griselda El-Tayib
May 2017

بسم الله الرحمن الرحيم

دور الإسلام في تنوير العالم

كانت العرب أُمَّةً أُمِّيَةً ومع هذا كانت لها بلاغة في الشعر وطريقة تفرَّدت بها في روايته وحفظه، وكانت صدور الرواة هن دفاتر الشعر والشعر هو ديوان العرب وكانوا ربما اختاروا منه القصيدة فكُتبت كالذي صنعوا بالمعلقات وكبعض ما رُوي مما صنعه ملوك الحيرة لا على سبيل التدوين ولكن على وجه الإكبار لها والإكرام لصاحبها ويكون ذلك مفخرةً له ولقومه.

وكانت العرب موغلة في البداوة ومع ذلك ذات اتصال قوي بالحضارات التي حولها وذلك أن جزيرة العرب كانت طريقاً للتجارة تجتاز رمالها الإبل وتمر بسواحلها السفن وقال أبو حيان التوحيدي في كتابه الإمتاع والمؤانسة بعد أن ذكر أسواق العرب وسيرهم من عند دومة الجندل إلى حضرموت وعدن وذي المجنة وذي المجاز وعكاظ وتبادلهم مع البيع والشراء الخطب والأشعار إنهم كانوا في بدواتهم حاضرين.

قال تعالى يخاطب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في الوحي المنزل عليه: " وما أرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ " .

فمن رحمة الله على العالمين أنه جلَّ شأنه بعث رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً أميًا في هذه الأمة الأُمية على زمان كانت فيه

هي أهم طريق للتجارة بين أحياز الدول الكبيرة، وأنه جعل معجزته قرآناً أوحاه إليه فتلاه على العرب فبهرتهم بلاغته وحكمته فأقبلوا عليه يروونه ويحفظونه ثم حملتهم من بعد طبيعة العمران إلى إتقان ما كانوا دربوا عليه من فن الرواية على نهج حضاري جديد ، فأحكموا الكتابة وجعلوها بعد أن كانت حلية إكبار مذهباً في التعليم ووسيلة للتدوين وعمدوا إلى حفظ السطور يعززون به حفظ الصدور ولم يدعوا التلقي المشافه ذا الحرص على الرواية والحفظ الدقيق.

كانت في قريش كتابة. كانوا عند ظهور الإسلام هم أكتب العرب. ولكن حكمة الله عز وجل اقتضت حين اختار مختاره منهم أن جعله أُميا فكان بذلك أعرف بحال قومه الأُميين وأرفق في دعوتهم وأخبر بسُبُل هدايتهم . قال تعالى: " فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ " . وصار المذهب الذي اتبعه الرسول صلى الله عليه وسلم في تعليم أصحابه واتبعه أصحابه رضوان الله عنهم من بعده هو الأساس والقدوة في أساليب التعليم الإسلامي من بعد فاعتمد المسلمون على توثيق الرواية وجعلوا الكتابة لها سنداً . وقد عمل الصحابة في جمع القرآن عملاً لم يسبق له نظير في الدِّقة والتحقيق وبلغ علماء المسلمين النهاية في تمحيص الأسانيد ونقد المتون تشهد بذلك الشروح والكتب التي خُصصت لضبط الأسماء والألفاظ وتفسير الغريب كمشارق الأنوار للقاضي عياض مثلاً وضوء الساري للعلامة ابن حجر.

ومن رحمة الله على العباد أن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد كانت للناس كافة وأن أهل الكتاب أنفسهم قد دخلوا في هذا

العموم فشملتهم مع الأميين . قال تعالى: " هُوَ اللهُ الَّذي لا إله إلاَّ هُوَ عالم الغَيْبِ والشَّهادَةَ هُوَ الرَّحمن الرَّحيم " فجاء معنى الرحمة يحمل نوعاً من التوضيح والتفسير لمعنى العلم . وقال تعالى: " ورحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسأكْتُبُهَا للذينَ يَتَّقُونَ ويُؤتُونَ الزَّكَاةَ وهُمْ بِآيَاتِنا يُؤْمِنُون الذين يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ " فخص الرسول النبي الأُمي وأتباعه بخصوصية عظيمة من رحمته التي وسعت كل شئ. وقال تعالى: " هو الذي بعث في الأُميين رسُولاً منهم " وقال تعالى " لقَد مَنَّ اللهُ على المؤمنينَ إذْ بَعَثَ فِيهم رَسُولاً منْ أنْفُسِهِم " وقال تعالى : " يأهْلَ الكتَابِ قَد جَاءكُم رَسُولُنا يُبَيِّنُ لكُم كثيراً مما كنتم تُخْفُونَ من الكتابِ ويَعْفُو عَنْ كَثِير قد جاءكُم مِنَ اللهِ نورٌ وكتَابٌ مُبينٌ يَهْدي به اللهُ مَن اتَّبعَهُ سُبُلَ السَّلام ويُخْرِجُهم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُور بإذْنه ويَهديهمْ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ " وقال تعالى: " يأهْلَ الكتابِ قد جاءكُمْ رسُولنا يُبيِّن لكم على فترةٍ مِن الرُسل أن تقولوا ما جاءَنا مِن بشيرٍ ولا نَذيرٍ فقد جاءكُم بشيرٌ ونذيرٌ واللهُ على كلِّ شئٍ قديرٌ " .

كان العلم عند الأُمم القدامى كالسر تحتفظ به طبقة مخصوصة من عليه الكهنة والسدنة وسادات القوم وصار عند أهل الكتاب مقصورًا على الأحبار والقسيسين والرهبان. وحمل التعصب الديني يوستنيان (٥٢٧°-٥٦٥م) على إغلاق مدرسة أثينا سنة ٥٢٩ فكان ذلك آخر العهد بتدريس علوم يونان في الامبراطورية الرومانية. ولما ظهر الإسلام بعد ذلك بنحو من قرن كان ظلام التعصب الديني والجهل مطبقاً على العالم كل إطباق.

° ٤٨٢م

فرض الله علينا معشر المسلمين قراءة ما تيسر من القرآن ، قال تعالى: فاقْرءوا ما تيسَّر من القرآن " وأمرنا بالتفكر في أنفسنا وفي خلق السموات والأرضِ ، قال تعالى: " وفي أنفُسِكم أفلا تُبصرون " وقال تعالى: " إنَّ في خَلْقِ السَّماواتِ والأرضِ واختلافِ الليل والنهارِ لآياتٍ لأولِي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقُعُوداً ويتفكرونَ في خَلْقِ السماواتِ والأرْضِ " وقال تعالى: " قُلْ هلْ يستوي الذين يعلمُونَ والذين لا يعلمُون " وقال تعالى: " إنَّما يخشى الله مِنْ عبادِهِ العُلماءُ " وأمرنا سبحانه وتعالى أن نسأل من يعلم عما لا نعلم قال تعالى: " فاسْألوا أهلَ الذِّكر إنْ كنتم لا تعلمُون " ونعت الله عز وجل القرآن بأنه شفاء ورحمة قال تعالى: " ونُنزِل من القرآن ما هو رحمةٌ وشفاءٌ للمؤمنينَ ولا يزيدُ الظالمينَ إلاَّ خَسَارا " وخسار الظالمين من أعظم الرحمة . وقال تعالى: " يأيُّها النَّاسُ قد جاءتكمْ موعِظةٌ من ربكم وشِفاءٌ لما في الصُّدُورِ وهدىً ورحمةٌ للمؤمنينَ قُلْ بفضل الله ورحمتِهِ فبذلك فليفرحوا " .

أقبل المسلمون على درس القرآن وتفرَّغ جماعةٌ منهم لحفظه وتفسيره ودرسوا الحديث [والسنن] وأسباب النزول وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبار أصحابه ودرسوا عادات العرب وأوابدها وأخبارها وطافوا في آفاقها وتحروا أن يكون أخذهم عن تجربة ومشاهدة . ودرسوا اللغة وأتقنوا تحليل نحوها وتراكيبها وبيانها ووضعوا لها المعاجم . وانفتح باب العلم على مصراعيه فولج فيه من شاء متى شاء لا يصده عنه كيد كاتم أو محتكر.

ازدهرت العلوم في حلقات الدرس في المساجد والدور وفي مجامع الأمصار كمربد البصرة مثلاً. وازدهرت حركة الترجمة من

علوم الأُمم المتقدمة من اليونان والهند وغيرهم وجوّدت صناعة الورق وكثرت الكتب وشُجّع التأليف وأُنشئت البيمارستانات الثابتة والمتنقلة وأتقنت ضروب العمارة والهندسة والصناعات والحرف وخطت علوم النظر والكيمياء والفلك والرياضيات خطاً بعاداً ودرست الفلسفة والتصوف وبلغت مذاهب الفقه والاجتهاد نضجها وسمت حضارة الإسلام مراقي رفيعات في المشرق والمغرب وبلاد الأندلس وامتد نور العلم إلى أعماق ما وراء الصحراء فانجاب به عن كثير من بلاد السودان وإفريقية الظلام.

وقد أحدث علماء الإسلام من فقهاء وقرّاء ومُحدِّثين ونحويين ولغويين وأدباء وشعراء وخطباء ثورة تجديد بناء في أساليب التعليم إذ أكسبوه حيوية بطريقة المشافهة وإحكاماً بالنسخ والتأليف والمقابلات وتجويداً للفهم والتذوق بالحرص على الحفظ للأصول الهامة على رأسها القرآن والحديث ثم الشعر وهلم جرا عن ظهر قلب. والحفظ يعين على الفهم متى انضافت إليه الفطنة . وقل علم يصلح بلا حفظ. ومما زاد في الحيوية وساعف في أمر تقصي الحقائق وتحليلها اهتمام كبار علماء المسلمين بالبحث الميداني وبالتجربة.

ثم فريضة الحج وزيارة القبر والروضة الشريفين . ذلك كان يتيح للعلماء اللقاء فيأخذ بعضهم عن بعض. وكان مع طلب العلم التواضع وحسن الأدب. وحرص علماء المسلمين على الهجرة من أجل طلب العلم ولقاء العلماء مع جعل الهدف الأول أداء الفريضة والخظوة بشرف الزيارة . وكان السفر نفسه يتيح لطالب العلم فرصاً جديدة من الاستفادة بمعرفة أحوال شتى البلاد والعباد. وقد أفادت العلوم

الاجتماعية وكثير من علوم تقويم البلدان ومعرفة النبات والحيوان فوائد عظيمة من أسفار الحج وطلب العلم والرحلة من أجله.

وقد كانت الكتب تنتقل بسرعة مذهلة بين أطراف العالم الإسلامي ويصحب تنقلها توثيق بالرواية والقراءة في المساجد والإجازة . وقد أنشأ المسلمون المدرسة النظامية واخترعوا أسلوب التعليم العالي الذي عنهم أخذ وعرف فيما بعد باسم الجامعة وعن المسلمين أخذت أوروبا أوائل ما كان لها من التعليم الجامعي في بولونا بإيطاليا وفي باريس واكسفرد وبراغ وغيرهن.

وكان لأوربا اتصال مباشر بحضارة المسلمين أخذ منها منذ حصار المسلمين الأول للقسطنطينية أيام معاوية إلى فتحها على يدي محمد الثاني الفاتح سنة ٨٥٦هـ - ١٤٥٣م لا بل إلى يومنا هذا.

ربما نُسب تأثُّر أوروبا بحضارة الإسلام إلى زمان الحروب الصليبية وهذا صحيح في جملته، إلا أن تأثرها قد بدأ قبل ذلك بزمان. مثلاً دعا ليو ملك الروم في القرن السابع الميلادي أي الأول الهجري قومه إلى تحطيم التماثيل ويذكر اومان في كتابه عن العصور المظلمة أنه تأثر في فعله هذا بالمسلمين. وكان بين شرلمان وبغداد اتصال سياسي. وتعلَّم الافرنج صناعة الحرير من نصارى الشام. وعرفت النهضة الكارولنجية أيام شرلمان بروائع من الخط لم يسبق لها في الخط الرومي نظير ولا بلغ الأوج الرفيع الذي بلغته من بعد ولا ريب أنها تأثرت بالخط الأندلسي الكوفي وكانت قرطبة في إبان ذروة حضارتها آنذاك .

هذا ولم يقف أخذ الافرنج عن المسلمين في مدة الحروب الصليبية عند الورق والسكر وبعض الطب والكيمياء والفلسفة. لقد تجاوز ذلك إلى نفس الدين، إلى القرآن والفقه، وإلى نفس اللغة العربية وآدابها تُرجم القرآن إلى اللغة اللاتينية في القرن الحادي عشر الميلادي أي بين أواخر الرابع الهجري والخامس.

ومما يشهد بالحرص على درس اللغة وعلوم اللسان أن مدرسة وستمنستر بلندن ما زالت منذ عدة قرون تدرس العربية درس إلزام مع اللاتينية واليونانية والعبرانية. وذكر السير والترسكوت (١٧٧١-١٨٣٢م) في قصته إيفانهو أن أكثر طبقات الفرسان في القرون الوسطى كانوا يتقنون العربية وكذلك كان القسس والرهبان كأدلارد اوف باث من رجال أول القرن الثاني عشر الميلادي وروجربيكون من رجال القرن الثالث عشر الميلادي . وكانت صقلية وجنوب إيطاليا ونواحٍ من جنوب فرنسة وسويسرة قد ملكها المسلمون وأثروا فيها تأثيراً عظيماً وتأثر بها ما حولها . وفي صقلية نشأ فردريك الثاني حفيد فردريك بربروسه (١١٩٤م - ١٢٥٠م = ٥٨٩ - ٦٤٧هـ) امبراطور الدولة الرومانية المقدسة وكان يقال له عجيب الدنيا وكان يتقن العربية ويحب المسلمين واتهمه أعداؤه بأنه كان يُسِرّ الإسلام وقد حاربته الكنيسة وحاربت عقبه من بعده حرباً لا هوادة فيها. وذكر المؤرخ البريطاني تريفليان في مختصره لتأريخ بلاده أن هنري الثاني ملك انجلترا ودوق نورماندي وأنجو وأكوتين الذي كانت دولته ممتدة إلى حدود إسبانيا كان قد درس القانون في إيطاليا (١١٣٣م - ١١٨٩ = ٥٢٧ - ٥٨٤هـ) وذلك في القرن الثاني عشر الميلادي أي السادس

الهجري وأنه هو الذي أوجد نظام المحلفين في القضاء الانجلوسكسوني ولا يعلم من أين أخذه. وجلي أنه بحكم درسه في إيطاليا ومجاورته لإسبانيا على زمان كانت فيه حضارة الإسلام مزدهرة والأخذ عنها شائعاً ثم فوق هذا كله تتلمذه على أدلارد اوف باك وصلة هذا القوية به، جليٌ جدًا أنه استمده من نظام اللفيف المعمول به عند المسلمين وقد كان محلفو هنري الثاني يشهدون كما يفعل اللفيف تماماً وعدتهم كعدة اللفيف ثم تطور أمرهم من بعد حتى صار لهم القول الفصل في الحكم بحسب أنظمة القضاء الانجلوسكسوني.

وذكر فشر المؤرخ أن أوربا إنما تعلمت مبدأ التسامح الديني من الأتراك العثمانيين الذين كان أمر تسامحهم في معاملتهم لرعاياهم من البلغار وغيرهم من نصارى البلقان معروفاً.

وفي مطلع العصر الحديث أفاد البرتغاليون خاصة من علم العرب بالبحر ولابن ماجد الذي يقال إنه أعان على معرفة الطريق الجنوبي إلى الهند منظومة مشروحة وضح فيها كيف يقدر الملاح الماهر أن يضبط بمجرد البصر مع قياسات يقيمها على أصابع الكف وقبضتها موضع المنطقة التي هو فيها من البحر ضبطاً جغرافياً دقيقاً. ومثل هذا العلم لا يستغني عنه الملاح البحري الماهر حتى في عصرنا هذا الحديث ذي التقنيات وإنما سقنا هذا المثل من أجل توضيح نوع الحيوية والبساطة التي كان يقيم عليها المسلمون خبرتهم ومعارف علومهم.

وأما أخذ الافرنج عن العرب في أبواب الفلسفة والرياضيات والفلك والمنطق فهذا باب واسع. ومن طريف ما قد يذكر في هذا الصدد أن الفيلسوف البريطاني برتراند رسل في كتابه عن تأريخ

الفلسفة الغربية أفرد فصلاً قصيرًا قصر فيه جداً عن فلسفة المسلمين وزعم أن الغزالي بتعصبه الديني قد قتل الفلسفة وخفي عنه أن الغزالي كان من العباقرة لا في علوم الدين وحدها ولكن في الفلسفة أيضاً وقد كان من السابقين إلى الحديث عن النسبية واستعمل هذا اللفظ عينه عندما برهن على أن الزمان أمرٌ نسبي لا تقوم به حجة لمن قال بقدم العالم كما كان من السابقين إلى إنكار السببية وقد تأثر به في هذا دفيد هيوم . وإنما أُتي برتراند رسل من اعتماده اعتمادًا بلا نقد على أقوال لبعض المستشرقين وكثير من هؤلاء يغلب عليهم التعصب الديني لصلة أكثرهم بالكنيسة والتبشير أو السياسة المنبعثة منهما .

وأكثر ما يكتبه المستشرقون ومؤرخو الحضارة الافرنج عن حضارة المسلمين وفلسفتهم قلّما يتعدون فيه الزعم أنهم إنما كانوا نقلة . وإذا ذكروا ما داخل لغاتهم من كلام العرب فقلما يخرجون به عن الابنيق ولفظ الكمياء وبعض أسماء النجوم . ومنهم من يغلو فيزعم أن حضارة الإسلام بضاعتنا رُدَّتْ إلينا. وأكثر دعوى الغربيين أنهم ورثة حضارة يونان وأن هذه أصل . وزعم لاسيل ابركرومبي في كتاب له عن النطق والمخارج أن اليونان هم الذين اخترعوا حروف الهجاء واليونان أنفسهم لم يدعوا ذلك إذ نص هيرودتس في التأريخ أنهم تعلموا الحروف من الفينيقيين وأخذوا الرياضيات عن مصر. وقد أثبت بعض الباحثين المعاصرين أن أسماء الخيل وأوصافها عند قدماء اليونان أصولها عربية وهذا باب واسع وفوق كل ذي علم عليم.

ومما يوشك أن يكون مغفولاً عنه كلَّ الغفلة أخذ أوروبا عن العرب في مجالات الآداب والفنون. وقد يذكر مؤرخو الفنون الأوربية

أن سبب نهضتها هو ما حدث من فرار علماء بيزنطة إلى البندقية وغيرها بعد أن فتحها الأتراك في القرن الخامس عشر الميلادي. ونتساءل بَعْدُ لماذا لم تفدْ البندقية وسائر أوروبا من علماء بيزنطة عندما سيطر الافرنج عليها قرابة ستين أو سبعين عاماً قبل ذلك ؟ لعل تأملاً يسيرًا يكشف لنا أن نهضة الفنون الأوروبية قد تأثرت تأثراً مباشراً بحضارة المسلمين، فقد كان فيهم نبوغ باهر في التصوير والعمارة في المشرق والمغرب. أول عقد بنائي محدد الأعلى عرفته أوروبا كان في جامع قرطبة العظيم. وكانت الفازات والأبسطة وكثير من المخطوطات تحليها صور غاية في الإتقان.

قال أبو الطيب يذكر فازة لسيف الدولة عليها صور مزخرفة :

وأحسنُ من ماءِ الشَّبيبةِ كلِّه	حَيَا بَارِقٍ في فَازَةٍ أنا شَائِمُه
عليها رِياضٌ لمْ تَحُكْهَا سَحابةٌ	وأغصانُ دَوحٍ لم تُغَنِّ حَمائمُه
وفوقَ حَواشِي كلِّ ثوبٍ مُوَجَّه	منَ الدُّرِّ سمطٌ لم يُثقبهُ نَاظمُه
تَرَى حيوانَ الأرضِ مُصْطَلحاً بها	يُحاربُ ضدٌّ ضدَّهُ ويُسالمُه
إذا ضَربتهُ الريحُ ماجَ كأنَّهُ	تَجُولُ مَذَاكيه وتَدْأى ضَرَاغمُه
وفي صورةِ الرُّوميِّ ذِي التَّاجِ ذِلَّةٌ	لأبلَجَ لا تِيجَانَ إلاَّ عَمَائِمُه

ويذكر أن الفنان والمفكر الكبير ليوناردو سافر في بلاد الشرق القريب وكانت له بالعربية معرفة . وكثيرًا ما يستوقفني مرأى صورة جيوكندا المشهورة عن روائع رسمه بقوة الشبه المعنوي والحسي بينهما وبين قول ذي الرُّمة :

كأنَّ عـمودَ الفجـرِ جيـدٌ ولبةٌ وراءَ الدُّجى من حرةِ الوجهِ حاسر

وذكر صاحب المزهر أن إسحق الموصلي كتب الموسيقا وأنـه نسب اهتداءه إلى كتابتها إلى استفادته من عمل الخليل بن أحمد في علم العروض . وهذا القول تسنده الفصول الأخيرة من كتاب الموسيقا الكبير لأبي نصر الفارابي فقد ربط ربطاً بين العروض والشعر والموسيقا وزعـم أن الشعر هو رئيس الهيئة الموسيقية. وذكر صاحب الأغاني أن الموسـيقا والغناء اتجها اتجاهاً شعبياً بعد إسحق عند مخارق وأصحابه . وقد اهتمـت الكنيسة الغربية بترجمة كتب العرب في الموسيقا . وذكر العلامة التركـي فؤاد سوزكيف أن بعض الإيطاليين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ادَّعوا ما ترجموه لأنفسهم أنهم هم الذين ألَّفـوه وربمـا نسـبوا بعضه إلى أسماء يونانية قديمة وهمية. ومما يشهد بأخـذ أوائـل موسـيقا الكنائس عن مخارق قول المعري في اللزوميات:

مخاريق تبدو في الكنيسة منهم بلحْنٍ لهم يحكي غِنَاءَ مخارق

وميدان الآداب والبلاغة والشعر العربي ما زال البحث قاصـراً كل القصور في مقدار ما أثَّر به علـى أوروبـا. وللتعصـب الـديني والعنصري من الكتمان حجب مكثفة في هذا الباب. وأكثر ما يدور الحديث عن ألف ليلة وليلة كأنها وحدها هي أدب العرب. وأثر مقامات الحريـري براويها وبديعها ورصانة أسلوبها أوضح في أسلوب شوسر ولانجلاند مـن ألف ليلة وليلة . وقصة القس الغافر لشوسر مأخوذة من الحديث النبوي عن الثلاثة الذين أصابوا كنزًا ثم أهلكهم الطمع جميعاً. وقد كان شوسر يعـرف العربية إذ كتب رسالة عن الاصطرلاب وذكرت له وفادة مع دوق غونـت إلى بلاد الإسبان وذلك في القرن الرابع عشر الميلادي.

ومن عجب الأمر أن علم شوسر بالعربية ووفادته إلى إسبانيا كل ذلك يكتم ولا يذكر وجل ما يقال أنه أخذ فن القصة عن بوكاشيو وأن بوكاشيو تأثر بألف ليلة وليلة.

ولا ريب أن بوكاشيو ودانتي وأوائل أدباء الطليان قد تأثروا بالعرب في صقلية وإيطاليا والأندلس. وينسب فن " السونيت " إلى بترارك وأصوله لا ريب من طريقة التوشيح. ومن العناء والتكلف محاولة بعضهم رد فن التروبدور وهو بداية فنون الشعر والأدب الرفيع في أوروبا إلى الأغاني اللاتينية الكنسية وإلى بعض آداب أمم الشمال وقد فطن إلى هذا التكلف الكاتب الفرنسي ستندال ونبه عليه في رسالة له عن الحب ذكر أنه تعلم في صباه من قصص الحب العذري من أستاذ له في غرينوبل ونبه في بعض ما كتب عن أن الخزانة بباريس ملأى بالكتب العربية النفيسة إلا أن الكنيسة تنهى عن النظر فيها . ومن قبل ستاندال نبه المستشرق البريطاني وليم جونز في رسالة له باللغة الفرنسية عن الشعر الشرقي على أن أصول شعر التروبدور إسبانية وجونز هذا ترجم المعلقات السبع ونشر ترجمته سنة ١٧٨٣م ورسالته عن الشعر سابقة لذلك.

وقد تُرجمت روائع من الشعر العربي إلى اللغة اللاتينية منذ زمان بعيد . وعمل الدكتور صمويل دونسون (١٧٨٤-١٧٠٩) في معجمه وهو أول معجم كبير وضع للإنجليزية يشهد بتأثره بأسلوب المعاجم العربية الذي يتبع ذكر الكلمة شواهد من الشعر ومأثور النثر وللدكتور جونسون أحياناً تعليقات تشتم منها كأنفاس ما يقع من الفكاهة ونحوها في تعليقات المعجميين العرب كبعض سجعات الأساس. مثلاً

مقاله عن الشوفان أنه علف البهائم هنا ولكن طعام الناس في استكتلندة وتعد ترجمة جيمز بورويل (١٧٤٠-١٧٩٥) معاصرة له من الأعمال الأدبية الفريدة ونظر صاحبها إلى سيرة ابن هشام وإلى طريقة السرد فيها لا يخفى.

ويبدو أن ملتون الشاعر الإنجليزي الكبير كان يعرف شيئاً من العربية إذ في بعض رسائله ينتقد زيادة الدال في أدميرال لأن أصلها من أمير البحر ولملتون أسلوب في السونيت حاكاه فيه وردزورث الشاعر الرومنسي الكبير. وقد حذا ملتون فردوسه المفقود على دانتي وهذا تأثر بالعربية وأخذ من قصة الإسراء والمعراج والأحاديث الواردة في ذلك ومن شعر المديح النبوي وأدب المعري وابن عربي وهلم جرا. وقد ترجمت روائع الأدب العربي إلى اللاتينية من زمان بعيد . ونشرت ترجمة لحماسة أبي تمام في ألمانيا في النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي ولديوان المتنبي ومعاني القرآن بنحو من مائة عام قبل ذلك. وكان أندرو مارفيل كاتب ملتون كثير الأخذ من شعر أبي الطيب من ذلك قصيدته المختارة في الحديقة نظمها أول مرة باللاتينية ثم بالإنجليزية وحذاها حذواً على " مَغَانِي الشِّعبِ طِيباً في المَغَانِي " وأثر أبي الطيب وأبي تمام كليهما يُحس عند شكسبير وغيره. مثلاً وصف شكسبير على لسان انوباربوس لكليوبطرة فيه شبه شديد بقول أبي تمام في عمورية:

من عَهدِ إسكندرَ أو قبل ذلكَ قد شَابتْ نَواصِي اللَّيالِي وهيَ لم تَشِبِ

بِكْرٌ فما افترعتها كفُّ حَادِثةٍ ولا تَرقَّتْ إليها هِمَّةُ النُّوبِ

وقول ماكبيث إن الطموح قد يجاوز حده فيصير الوثب به إلــى سقوط صارع قريب من قول أبي تمام:

أم ذاكَ من هممٍ جاشَتْ فكم ضَعَةٍ　　حَـدَا إليها غُــلُــوُّ القومِ في الهِمَمِ

ونُوشِـك أن نحس روحاً من قول حبيب " همم جاشت " في قــول وليم شكســبير "But ambition vaulting ambition" وتحــرك غابــة دنسنين في قصة ماكبيث مأخوذ من خبر أسحار زرقاء اليمامة بلا ريب.

وقد كان صمويل كلردج الرومنسي الكبير كثير الاطلاع ويــذكر عن بعض علماء المسلمين في كتابه النفيس السيرة الأدبية وهو مقــدم عند النقاد وقد سافر إلى مالطة وينبغي أن يكون قد اطلع على تــراجم لاتينية كثيرة في العربية ولعله كان يعلم شيئاً من العربية وفي ســيرته الأدبية آراء في النقد أصولها في نظريات ابن الباقلاني وبلاغيي العرب عن إعجاز القرآن . ووليم بليك الذي يُعد من أشــد شــعراء المــذهب الرومنسي أصالة وأقدمهم سبقاً فيه ما يدل على تأثر شديد بالمتنبي في وصفه للأسد وذلك في قصيدته التي نعت فيها النمر :

Tiger, tiger burning bright
In the forests of the night

ودفاع شيلي الرومنسي الشــاب عــن الشــعر مفعــم بالتشــبيهات والاستعارات التي كأنما أخذت أخذاً من وصف أبي تمام لشعره حيث يقول:

خــذها مثقفــةَ القَــوافِي ربُّهـــا　　لسَــوابِغِ النَّعمــاءِ غيــر كنــودِ
كالطعنةِ الــنَّجلاءِ مــن يــد ثــائر　　بأخيــــه أو كالضَّـــربةِ الأخـــدودِ
كالــدُّرِ والمرجــانِ ألّــف عقــدهُ　　بالشذرِ فــي عنــقِ الكَعَــابِ الــرُّودِ

يُعطي بها البشرى الكريمُ ويحتبي بردائها في المحفلِ المشهودِ
بشرى الغَنِي أبي البناتِ تَتابعتْ بشراؤهُ بالفارسِ المولود

وقال شيلي Peotry is something divine وقال أبو تمام :

وكيفَ ولم يزلْ للشعر ماءٌ يَرفُ عليه رَيْحانُ القُلُوبِ

ولله درُّ ابن الأثير إذ قال عن أبي تمام إنَّه ربُّ معانٍ وصَيقلُ ألبابٍ وأذهان .

كان الدكتور طه حسين رحمه الله كثيراً ما يحث على درس اللاتينية واليونانية وكان يؤخذ عليه هذا أنه يقلد به أسلوباً من التعليم افرنجي تركه الافرنج أنفسهم الآن . ولقد كان الدكتور طه رحمه الله ناقداً حصيفاً مرهف الذوق نافذ البصيرة وقد كان يعلم أن في خزانات أوروبا شرقها وغربها مما ترجم من العربية إلى اللاتينية واليونانية كنوزاً ربما كشف الاطلاع عليها عن مدى الدين الكبير والأخذ الشديد الذي أخذته آداب أوروبا شعراً ونثراً من آداب العربية التي مردها للمتأمل إلى ما قدمنا ذكره أولاً من إقبال الأمة التي قال فيها الله عز وجل " كنتم خير أمةٍ أُخرجتْ للناس " على القرآن وعلومه.

هذه الأمة التي انضوت تحت نطاقها شعوب شتى وقبائل وأصناف عديدة مختلفة في مظهر الأجساد مؤتلفة بوحدة الدين والاعتقاد امتازت بروح من المساواة والعدالة الإنسانية لا يساويها فيها من البشر شعب أو أمة. أنزل الله عز وجلّ على رسوله صلى الله عليه وسلم قوله جل من قائل : " ومن آياته خلق السماواتِ والأرض واختلافُ ألسنتكم وألوانكم " فدلَّ على أن الدعوة في شمولها لا تخص لوناً ولا لساناً . وبين سبحانه وتعالى أن القرآن إنما أُنزل بالعربية للتيسير والتذكير.

قال تعالى: " فإنما يَسَّرناه بلسانك لعلّهم يتذكّرون " وقال تعالى: " ولـو جعلناهُ قُرآناً أعجميّــاً لقالوا لولا فُصِّلتْ آياتُهُ ءآعجمــيٌّ وعربــيٌّ " .

وكان المذكرون به الميسر لهم منهم الأبيض كأبي بكر والأدلم كعُمَـر وقيل كان أمهق أي أشقر والأسـود كـبِلال وخفــاف والآدم كعلــي والأصهب الرومي كصهيب والأحمر كسلمان الفارســي رضــوان الله عنهم أجمعين . وكان فيه الرجال والنساء فلم يفرق بين أحدٍ منهم فــي وجوب تبليغ الدعوة إليهم . قال تعالى : " من عَمِلَ صالحاً مِن ذَكَرٍ أو أُنثى وَهُوَ مُؤمنٌ فلنحيينَّهُمْ حياةً طيبةً ولَنَجْزِيَنَّهُمْ أجْرَهُمْ بِأحْسَنِ ما كانوا يعملونَ " وقال تعالى فاستجابَ لهُمْ ربُّهمْ أنّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عاملٍ منكُم من ذكرٍ أوْ أُنثى بَعْضُكُم مِن بعْضٍ " . وقال تعالى : " يأيُّها النَّاس إنّــا خَلَقْنَاكُم مِن ذكَرٍ وأُنثى وجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وقبَائلَ لتعارَفُوا إنَّ أكرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أتْقَاكُمْ إنَّ اللهَ عليمٌ خَبِيرٌ " . فهذه الآية قطعت الحجة أنه لا فضــل لأحد من البشر على أحد إلا بالتقوى.

ليس عند أُمة نص من الحكمة أو كتاب مقدس يبلغ هذا المبلغ من البركة والوضوح في رفض كل نوع من العنصريّة عرقيــة كانــت أو لونية ليس في عَهْدِي أهل الكتاب القديم والجديد نص صريح في رفض العنصرية كهذا . ولا في كتب الحكماء من الهند ويونان إلى فلاســفة العصور الحديثة بما فيهم روسو وكانت وماركس وتوم ياين صــاحب حقوق الإنسان نص يرقى إلى هذا المرقى. أعلى ما بلغه ماركس فــي صحيفة مذهبه الذي نادى به أن قال يا عمال الأرض اتحدوا لن تفقـد غير القيود والأغلال ولكن لم يذكر شيئاً يؤلف قلب العامل الأبيض إلى العامل الأسود بأنه لا فضل له عليه قبل القيد وبعده . سكت عن هــذا

الأمر في مجتمع لم يكن يشك في فضل الرجل الأبيض العرقي.
والسكوت رضا . والساكت عن الحق شيطان أخرس.

وفي كتاب الله نص سوى ما تقدَّم لا يدع لبساً أو غموضاً في أمر اللون والعنصرية . قال تعالى : " أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فأخرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُها وَغَرَابِيبُ سُودُ ، ومِنَ النَّاسِ والدَّوابِّ والأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كذلك إنَّما يَخْشَى اللهَ من عِبَادِهِ العُلَمَاءُ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ " .

مرَّ الصحفي البريطاني الرحالة كنجليك في القرن الماضي في ما مرَّ به ببلاد تركية فدهش لمَّا رأى قضاة وولاة سود الألوان ونبه على أن هذا باب من الفضيلة مغلق عند الافرنج آنذاك وما زال مغلقاً في جنوب إفريقيا وكالمغلق في أصقاع كثيرة غيرها . وأيما انفتاح له فأصله من تعاليم الإسلام الواضحة التي رسخت في قلوب أمة المسلمين منذ أيام الرسالة وبعثه صلى الله عليه وسلم جماعة من جلة أصحابه وفيهم ابنته مهاجرين لاجئين إلى بلاد السودان عند أميرها النجاشي أصحمة رضي الله عنه.

قال تعالى : " ولقد كرَّمْنا بَنِي آدم ورزقْنَاهُم مِن الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ ممَّنْ خَلَقْنَا تفضيلاً " .

والعنصرية بجميع أنواعها وألوانها أبعد الأُمور عن معنى التكريم الذي أراده الله عز وجلَّ وأمر به وجعل مقياسه الصحيح هو تقوى الله. " واتقوا الله ويعلمكم الله " . " إنَّما يخْشَى اللهَ من عِبَادِهِ العُلَمَاءُ " " إنَّ أكرمَكمْ عِندَ الله أتقاكم " .

بمعاني العدالة والإنسانية وتوقير العلم والمساواة بين الناس ربط الإسلام بين أطراف العالم القديم وأشاع فيه العرفان والنور من عند بلاد هوسا وتمبكتو إلى بلاد الهند والصين وبهذه المعاني المستمدة من الإسلام سيرتبط العالم مرة أُخرى إن أخذ بها تحت ظل تكريم الإنسانية وطلب العلم والفضيلة. وصدق الله عز وجل إذ قال: ونُنزلُ من القرآن ما هُوَ شفاءٌ ورَحْمَةٌ للمُؤْمنين ولا يزيدُ الظالمينَ إلاَّ خَسَارًا ". وإذا قال جلَّ من قائل: وما أرْسَلْنَاك إلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ" .

والحمد لله حمدًا كثيرًا والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه
وعلى آله وصحبه أجمعين.

عبد الله الطيب
٢ رمضان ١٤٠٦هـ

* * *

سألنا آنفاً ما المخرج وكيف سبيل الخلاص ؟

وعندي أن المخرج أمران معاً، هما التسامح الديني وإحياء علوم الدين . وأقول معاً لأن إحياء علوم الدين حقاً لن يتم من دون تسامح ، كما أن التسامح ربما أدى إلى التفكك إن لم يصحبه إحياء لعلوم الدين التي تفتح أمام النفوس آفاقاً جديدة منه، فيقوى الولاء له ويزيد التمسك به.

وأبدأ بالحديث عن التسامح.

والتسامح ضربان: تسامح نحو الأديان الأخرى ، وتسامح في داخل الدين نفسه. والتسامح نحو الأديان الأخرى بمفهومه العصري شئ غير غريب عن الإسلام. بل هو أصل من أصوله إذ يقول تعالى : " لا إكراه في الدين " وقد سبق الإسلام إليه جميع الأديان الكبرى . ويرى غير واحد من المعاصرين أن أوربا قد اقتبست فكرة التسامح الديني من الأتراك الذين كان عدد كبير من رعاياهم يدينون بالمسيحية في البلقان وغيرها، غير أننا ههنا لا بد لنا من التحفظ والاحتراس ، إذ التعصب الديني بين الدين الواحد والأديان الأخرى ، والتسامح الديني أيضاً بين الدين الواحد والأديان الأخرى كل ذلك أمر يعتمد دائمًا على طرفين - أعني الدين الفلاني مثلاً قد يكون متسامحاً بطبعه ، ولكن إذا وجد مقاومة وتعصبًا من دين آخر اصطدم معه في ظرف من الظروف، فإن هذا التسامح قد يقل أو يتلاشى بمقدار عنف التصادم بين الدينين، وبحسب الأساليب التي يستعملها كل من الدينين في هذا التصادم .

وقد بدأ الدين الإسلامي منذ نشأته يتسامح تسامح السيد نحو الأديان التي اصطدم بها. والسيد دائمًا في موقف المختار. وسلوكه يكون المثل يحتذى . ولا يمكننا أن نحكم حكمًا صحيحًا على موقف المسود وحقيقة رد الفعل الذي يكون منه، لأنه في الغالب يستغل سماحة السيد . وقد استغل أهل الكتاب تسامح الإسلام كل الاستغلال، فخاضوا في أمور الدين كما شاءوا ، وربما انتقدوا الإسلام . ولم يكونوا ممنوعين من شئ من ذلك إلا أن يتعرضوا لشخص الرسول بالطعن فإن هذا قد كان محظورًا عليهم . ولا يخفى أن في هذا منزلة عظيمة من التسامح ورحابة الصدر.

على أننا ينبغي أل ننسى أن المسلمين أصحبوا رحابة الصدر الدينية النظرية هذه تضييقاً سياسيًا على أهل الكتاب حرمهم كل الحرمان من الاشتراك في تسيير أمور الدولة. بل قد كان هذا الحرمان هو الثمن الذي دفعه هؤلاء إزاء الحرية الدينية البحتة. وقد كان بالنسبة إليهم ثمناً غير باهظ ، إذا قيس بالتنكيل والقهر على مفارقة الدين مما كانت تسير عليه سياسات الأديان الأخرى.

على أن هذا التضييق في حد ذاته كان أحياناً يتسع شيئاً فيسمح للمسيحيين واليهود ببلوغ مرتبة الوزارة . وإن كان مثل هذا التصرف من جانب السلاطين المسلمين كثيراً ما أحدث رد فعل بين رعيتهم . ولم يتجاوز الإسلام مع أهل الكتاب حدًا في التضييق أبعد من مجرد فرض الجزية إلا في زمان عمر بن الخطاب، إذ أجلى اليهود من جزيرة العرب. على أن هذا لم يكن منه تضييقاً ناشئاً عن قلة التسامح الديني . إنما كان منشؤه ضرورة سياسية بحتة ، حتى يكون العرب

المسلمون كلهم وحدة متكاملة ليس بينها دخيل. وقد يعترض معترض على هذا المزعم بأن سيدنا عمر إنما أقدم على الذي أقدم عليه من إجلاء اليهود اتباعًا لوصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يجتمع دينان في جزيرة العرب . فيجاب عن هذا بأن الوصية النبوية إنما كانت سياسية بحتة، أريد منها صيانة العصبة المنافحة عن الإسلام بإخلائها مما قد يخل بتماسكها من العناصر. ويشبه هذه الوصية ما كان من تأليف الكفار على الإسلام – وقد رأى بعض فقهاء المسلمين إسقاط المؤلفة قلوبهم من حساب من تدفع إليهم الزكاة استناداً على أن رقعة الإسلام قد اتسعت وأن الدافع إلى التأليف قد انتهى إذ قد عز الإسلام ، فلم تعد به حاجة إلى سياسة التأليف.

ومهما يكن من شئ فقد ظل الإسلام يتسامح مع أهل الكتاب ثم من بعد مع غير أهل الكتاب ممن يجرون مجرى أهل الكتاب كمجوس فارس والهند ، تسامح السيد الراعي.

ولكن منذ بداية العصر الحديث بدأت سياسة التسامح هذه تتغير بالتدريج تبعاً للعوامل الخارجية. فقد جعل الإسلام يتراجع من موقف السيد المنتصر إلى موقف المغلوب شيئًا فشيئًا. وفي القرن التاسع عشر فقد الإسلام معظم ما كان له من أسباب السيادة . ثم إنه لم يجد من العالم المسيحي الذي انتصر عليه نظير ما كان هو يعطيه الرعايا المسيحيين من التسامح . وعدم التسامح من شأنه أن يثير عدم تسامح يماثله. فبدرت في أثناء القرن التاسع عشر بوادر من العصبية الدينية كان من جرائها المذابح المؤسفة في لبنان في حدود سنة ١٨٦٠م . وكانت ثورة المهدية في السودان غير متسامحة كل التسامح مع أهل

الكتاب إذ اضطرتهم إلى حضور الصلاة وإلى الاختتان وحملت الرهبان على التزوج . وهذا كله كما قدمنا كان نتيجة للتعصب الذي ظهر من دول أوروبا المسيحية تجاه الإسلام .

ثم إن الايثار الواضح الذي بدا من جانب المستعمر الأوربي للعنصر المسيحي في بلدان الإسلام كالموارنة في الشام والقبط في مصر، أثار حفائظ المسلمين وأوجد بينهم وبين الأقليات المسيحية القاطنة بينهم نوعاً من عدم الثقة . وقد تجلى عدم الثقة هذا واضحًا جلياً في دستور الاستقلال اللبناني ، كما تجلى في أسلوب الحكم بمصر، الذي كان يحرص دائمًا على ألا يكون رئيس الدولة قبطيًا وعلى أن تكون للأقباط في مراتب الدولة نسبة خاصة ، حتى لا يجحفوا بحقوق الأكثرية من المسلمين . وحتى دعوة القومية الوطنية في الشام وفي مصر ، ثم الدعوة القومية العربية من بعد لم تقدر على إزالة هذه الشكوك العميقة الجذور.

وفي الهند بدا من طائفة الهندوس تعصب شديد إزاء المسلمين أخرج المسلمين عما كانوا عليه من التسامح إذ قد كان المسلمون سادة في الهند ، وكان تسامحهم تسامح السيد نحو المسود. فلما صاروا هم والهندوس رعية للإنجليز سواء بسواء، حزَّ في نفوسهم ما بدا من تكتل الهندوس معاً ليقصوهم عن الأماكن الحساسة في إدارة الدولة وسياستها. وتأريخ الانقسام الهندي وما صحبه من المذابح معروف.

ولا جدال أن التسامح الديني قد اختفى من الهند بالكلية في الفترة التي سبقت الاستقلال وتلته .

والحق أن التسامح الديني بالنسبة للأديان الأخرى أمر في جوهره شبيه بالتسامح السياسي في ميدان السياسة الدولية . ونحن لا يمكننا أن نطالب المسلمين بأن يكونوا متسامحين مع الأديان الأخرى إن لم تكن هي غير متسامحة معهم ، إذ هكذا تقتضي سياسة طلب البقاء والدفاع عن النفس وقديماً قال الشاعر:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقي صولة المستأسد الحامي

والذي نقدر أن نطالب به المجتمع الإسلامي مطالبة ملحة ، هو أن يجعل التسامح نحو الأديان الأخرى ، بمعنى التعايش والمساواة الكاملة في الحقوق الدنيوية هدفاً من أهدافه يلتمس الوسائل له ، بالتدريج . وما دامت في المجتمع الإسلامي أقليات ذات عدد من المسيحيين وغيرهم ، فإن واجبًا على المجتمع الإسلامي أن يلتمس جميع السبل ليطمئن هذه الأقليات ويتيح لها فرص الإنتاج والمساهمة الكاملة. ولكن مثل هذا المسلك لا يمكن أن يتم من جانب المجتمع الإسلامي إلا إذا أبدت هذه الأقليات بدورها استعدادًا لأن تنصهر انصهارًا اجتماعيًا كاملاً بحيث لا تشعر بولاء لغير المجتمع الإسلامي الذي تعيش وسطه. وليس معنى هذا أن تتخلى عن عقائدها . بل معناه ألا ترتبط نفسها ارتباط ولاء بأوروبا المسيحية في الحين الذي تعلم فيه أن مستقبل كيانها متوقف على علاقتها بالكيان الإسلامي. وستكف هذه الأقليات عن إبداء أي ولاء لأوروبا المسيحية متى شعرت بأن فرصة المساواة في الحقوق المدنية في العالم الإسلامي مفتوحة أمامها - مساواة الند للند ، وحرية العشير للعشير، لا حرية محدودة في داخل نطاق علاقة المسود بالسيد.

وهذا بدون ريب هدف بعيد لا يمكن تحقيقه في القريب العاجل . وإنما يدنو المجتمع إليه بعد فترة من التجربة والتطوير.

وجانب آخر غير هذا الذي ذكرناه يدخل في باب التسامح الديني نحو الأديان الأخرى، هو أمر علاقة المجتمع الإسلامي بالدول غير المسلمة . وليس ضربة لازب أن تكون العلاقة بين المجتمع الإسلامي وبين هذه الدول علاقة حرب ومن حسن الحظ أن المجتمع الإسلامي في سائر أطوار نمائه لم يحدد علاقته بالدول غير المسلمة المجاورة هذا التحديد . بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه قد أمضى عهد الحديبية والتمسك به ولم ينقضه حتى نقضته قريش وأعانت قبائل أبي بكر على خزاعة. وكذلك كان موقفه مع اليهود في المدينة وخارجها والصحابة من بعد لم يحاربوا فارس إلا بعد أن أداروا الرأي بينهم. ولو قد كان الأمر ضربة لازب ما احتاجوا إلى أدارة الرأي - وقد قدم سيدنا عمر مقدمات طويلة قبل أن يرسل سعداً، منها إرسال أبي عبيد الثقفي وما كان من استشهاده وأصحابه في موقعة الجسر، ثم بعد ذلك ما كان من أمر المثنى بن حارثة ودوسه أطراف السواد بالسرايا . وعلى هذه السياسة درج الخلفاء بعد عمر. فقد تردد عثمان كل التردد قبل أن يأذن لمعاوية في غزوة البحر. كما تردد معاوية نفسه قبل أن يقدم على التوغل في إفريقيا . وموقف الوليد بن عبد الملك من موسى بن نصير معروف إذ لم يأذن له بالاقتحام إلى جزيرة الأندلس إلا بعدد محدود ومن دون أن يغرر بالمسلمين .

ثم إن علاقة المسلمين في الأندلس بجيرانهم النصارى مرت بها أطوار من الدهر تقلب فيها الأمراء بين أنواع المحالفات والمشاحنات

مما هو خارج بالكلية من باب الدين وداخل في باب المغامرة السياسية. وما سمح بمثل هذه المغامرات إلا أن الدين لم يـأمر أمـرًا صـريحاً بمعاداة الدول المجاورة التي تدين بأديان أخرى . بل في السوابق مـا يُشعر بخلاف ذلك . وكذلك في نصوص القرآن نفسه، إذ يقول تعالى : " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين " .

وقد أقدم هرون الرشيد على نوع من المحالفـة مـع شـرلمان الافرنجي ولم يعارضه في ذلك عالم من علماء عصره. مع أن حلفه مع شرلمان هـذا لم يكـن يخلو من قصد إلى النكايـة بـالأمويين فـي الأندلس؟ وإن كان أيضًا يعمد إلى النكاية بنصارى بيزنطة الذين كـان يحاربهم هرون.

وقد احتذى الأتراك حذو هرون أذ حالفوا الفرنسيين يريدون بذلك النكاية بالنمسا وجاراتها . ومهما يكن من شئ فإن علاقـات المجتمـع الإسلامي في سائر أطواره مع الدول المجاورة ذات الأديان الأخـرى كانت تسيرها السياسة البحتة. إن أحس فيها ضعفاً غزاها . وإن آنـس منها عونًا على عدو أقوى استعان بها وإن كانت بعيدًا رام إليها نوعًا من العهد والحلف.

ولعل قائلاً أن يقول : فهذه العلاقة كلها لا تخلـو مـن عنصـر الحرب وعدم التسامح. وليست سائر المحالفات التي عقـدها المجتمـع الإسلامي مع الدول ذات الأديان الأخرى إلا ضربًا من أساليب الحرب والقتال . وهذا الاعتراض سليم مقبول . إلا أنه لا يـدفع شـيئًا ممـا ذكرناه. إذ العلاقات بين الدول ما زالت مبنية على التـدافع والنضـال

دون التضامن والتعاون والسلام المحض . وما دامت العلاقات الدولية هكذا ، فمن الخطأ أن يعمد المجتمع إلى سياسة ضعيفة، أو إلى سياسة لا تنظر إلى واقع الأمور . بل لعل المجتمع الإسلامي أن يؤثر عليه جدًا في علاقاته مع الدول ذات الأديان الأخرى موقف هذه الدول بدءًا منه . هل هي مثلاً تقف منه موقفاً عدائياً يضطره إلى الجهاد ؟ هل فيها أقليات إسلامية تجد اضطهادًا وتعذيبًا ؟ خذ موقف إسرائيل مثلا - هل يقدر - المجتمع الإسلامي الآن على شئ إلا أن يقف منها موقف عداء ويتربص بها الدوائر ؟ وخذ الهند وباكستان .. هل تقدر باكستان أن تقف موقف الوداد من الهند ما دام الهنود مثلاً يضطهدون الأقليات الإسلامية العائشة بينهم ؟ نعم - على المجتمع الإسلامي أن يسعى نحو أسلوب أجمل وأكرم في العلاقات الدولية، حتى يقدر آخر الأمر هو والدول التي تباينه في الدين ، على الوصول إلى جو من الألفة والانسجام والتعاون . وليس في أصول الدين الإسلامي ما يمنع من هذا ولا في تأريخ الدين الإسلامي ما يمنع من هذا أيضًا. ولعل موقف المجتمع الإسلامي في هذا الباب أنصح وأجود منه في باب التسامح نحو الأقيات التي تعيش وسطه، إذ ليست ههنا نظرة السيد التي تحول بينه أو عسى أن تحول بينه وبين اتخاذ نظرة تنفذ مباشرة إلى معالجة الجانب الواقعي من الأمور. ولعل أقوى مثل على أن المجتمع الإسلامي ربما كان في هذا الباب أفضل المجتمعات كلها تهيؤاً للتسامح موقف المسلمين في طوال العصور من الحبشة. فقد كان في وسعهم أن يغزوها . ولكنهم حفظوا فيها قوله تعالى: " لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم

إن الله يحب المقسطين " – ولقد كان موقفهم هذا من الحبش أشرف وأكرم من موقف المجتمع المسيحي الذي يسمح لموسيلني أن يغير عليها وقيل إن البابا بارك تلك الغارة . هذا والتسامح الذي لابد من السعي الحثيث إليه الآن سعيًا بكل ما نملكه من قوة وبكل ما نقدر عليه من جهد ، هو التسامح في داخل نطاق الكيان الإسلامي ، هو التسامح بين المسلمين في ذات أنفسهم حتى يقدروا على فتح باب الاجتهاد من جديد ، وحتى يقدروا على بلوغ الخلاص من طريق التوفيق بين روح الحياة العصرية وروح الدين الإسلامي .

والناظر في تأريخ المجتمع الإسلامي يجد أنه قد بدأ متسامحاً جدًا فيما يتعلق باجتهاد الأفراد في داخل دائرته . ومن أوضح الأدلة على ذلك موقف المنافقين في المدينة. فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أنهم منافقون . وكان بعض الصحابة يشير عليه بقتل المجرمين منهم . بل إن أذاهم للنبي قد بلغ مبلغاً ، تأذن الله فيه بتهديدهم تهديدًا صريحاً في قوله تعالى : " لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً " ولكن هذا لم يكن أكثر من تهديد . إذ وعدهم الله المغفرة إن تابوا وذلك قوله تعالى : " ليجزي الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم وكان الله غفورًا رحيمًا " وأنت ترى ههنا أن باب الأمل والرحمة قد فتح على مصراعيه لهم، بالرغم مما كان يعلمه الله تعالى من أن بعضهم قد مردوا على النفاق وأنه: " سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين " وقد عاش جماعة من

هؤلاء المنافقين بعد وفاة رسول الله وتاب بعضهم وشاركوا في الجهاد ودرج بعضهم وربك أعلم بحقيقة ما كان من أمرهم .

هذا ثم إن ارتداد العرب في خلافة سيدنا أبي بكر أحدث تطورًا جديدًا هامًا للغاية في سياسة الإسلام الداخلية . ومعلوم أن الصحابة قد أجمعوا على ترك العرب وشأنهم إلا سيدنا أبا بكر فإنه أصر على أن يحاربهم حتى يؤدوا الزكاة ويعودوا إلى حظيرة الإسلام . وقد كان سيدنا أبو بكر مصيبًا كل الصواب في اجتهاده هذا . وقد رأى الصحابة صواب رأيه وتابعوه عليه وحاربوا العرب حتى عادوا راجعين في حظيرة الإسلام . لا بل إن العرب أنفسهم قد آمنوا بصواب رأي سيدنا أبي بكر، وندم المرتدون منهم على ما كان منهم من ارتداد. وقد رد سيدنا عمر بن الخطاب سبايا الردة وأسراءها ثقة منه أن هؤلاء ينبغي ألا يعاملوا معاملة الأعداء الكافرين ولا معاملة الأمم الأجنبية ، بل هم عرب كالعرب الذين كانوا أسروهم ولا سباء بين العرب في الإسلام .

وقد بنى الفقهاء المسلمون على اجتهاد سيدنا أبي بكر قياسًا صار هو المعمول به فيما بعد ، وهو أنه لا يجوز للمسلم قط أن يرتد عن دينه ، ومتى ارتد عن دينه فإنه يستتاب وإن لم يتب فإنه يقتل كافرًا .

وهذا الاجتهاد من فقهاء الإسلام صواب جدًا إذ كان ينظر إلى المجموعة الإسلامية من حيث إنها مجموعة محاربة مجاهدة وينبغي أن يكون صفها متماسكاً ليس فيه خلل حتى تقدر على الدفاع عن نفسها.

ولكنه فيه نظر إذا نظر إلى الأمر كله من الناحية الدينية البحتة ، بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم، أجاز رجوع المرتدين إلى أهلهم بعد صلح الحديبية، وبدليل أن الصحابة لم يروا رأي سيدنا أبي بكر من

الوجهة الدينية البحتة، لا بل إن سيدنا أبا بكر نفسه لم يفكر في أفـراد ارتدوا وإنما فكر في مجموعات ارتدت وجعلت تهدد كيان المجموعـة الإسلامية الناشئة . ولو قد كان فكر في الأفراد لكان أهدر دم الأشعث بن قيس الكندي ولم يعف عنه قط. لا بل لو قد كان التفكير كله منصبًا على ناحية عقائد الأفراد ما كان سيدنا عمر ليرد سبايا الردة وأسراءها، بل كان يستبقيهم أسراء وسبايا عقاباً لهم على ماكان منهم من ارتداد.

لا بل إن سياسة سيدنا عمر كلها تدل على أنه كان يعد العـرب عصبة الإسلام وركن الجهاد، ومعاملتهم معاملة خاصة، ولذلك أجلـى اليهود من جزيرتهم وأبدى تسامحاً عظيماً نحو أكابر المرتـدين مـنهم أمثال عمرو بن معديكرب وطليحة الأسدي فقد أمر سعد بن أبي وقاص أن يستشيرهم في تدبير الحرب من دون أن يوليهم أمرًا . ومما يجـدر ذكره ههنا أن طليحة الأسدي قد خرج يستكشف للمسلمين فـي غـزوة نهاوند فغاب طويلاً، فتحدث بعض الجند عنه وقالوا عسـى أن يكـون ارتد مرة أخرى. فبلغ ذلك طليحة فغضب وقال ما معناه لو لم تكن إلا العربية ما كنت لأطعم العرب العاربة هذه المعلومات. ذكر هذا الخبـر محمد بن جرير الطبري في أخبار غزوة نهاوند. وهـو يـدل دلالـة واضحة على شعور العرب بتماسكهم العنصري في أوائل دولة الإسـلام. ويشبه هذا الخبر قول الراجز، يصف ما كان من أمر صفين والفتنة:

أصبحت الأمة في أمر عجب

والأمر معقود غداً لمن غلب

فقلت قولاً صادقاً غير كذب

إن غدًا تهلك أعلام العرب

فهذا الراجز كما ترى تشاءم من الفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية لأنه يشعر بأن فيها انقسامًا للكتلة العربية وضعفاً لها.

ولا ريب أن العرب في صدر الإسلام قد ربطوا ربطاً شديدًا بين عنصريتهم القومية وبين العقيدة الإسلامية. وهذا الربط هو الذي دفع أكثر المرتدين إلى قبول الإسلامي والتحمس له. من أمثلة ذلك عيينة بن حصن الفزاري ، وكان من أوائل أهل الردة ، ثم دخل فصار من كبار المشيرين على عمر ، ومما أشار به عليه ألا يسمح بدخول الموالي في المدينة ، وقد تذكر عمر نصيحته هذه لما طعنه أبو لؤلؤة .

وقد أفاد الإسلام فائدة عظيمة من عصبية العربي أول الأمر ، لأنهم اندفعوا بها في الفتوح . ولكن عواقب هذه العصبية لم تكن حسنة آخر الأمر ، إذ أبدى العرب عنجهية بالغة إزاء الأعاجم بعد أن ملكوا ديارهم . كما أنهم انقسموا في ذات أنفسهم على عصبيات قبلية أكبرها عصبية مضر واليمن . وينسب المؤرخون انهيار دولة بني أمية ، فيما ينسبونه إليه من أسباب ، إلى استفحال هذه العصبية حتى أوشكت أن تودي إيداءً تامًا بعنصر الإخاء والمساواة وهما جوهر الإسلام .

وبعد الفتنة الكبرى انقسمت المجموعة الإسلامية إلى فرق وعصبيات كلها مبنية على نظرية الارتداد – أي كلها تستحل دماء الفرق الأخرى . واختلفت الأساليب بين الفرق . فبعضها آثر المجاهرة والثورة الحمراء وهؤلاء كانوا الخوارج . وبعضها آثر الروية والتقية وانتهاز الفرص وهؤلاء كانوا الشيعة . وكانت الفرقة الكبرى فرقة الجماعة، وكانت تملك من أسباب القوى ما يجعلها تسحق كل من يجهر بالمروق عليها من هؤلاء ومن هؤلاء .

وجعلت الفرق تتطور بالتدريج طوال الدولة الأموية. وكان الأمويون وولاتهم في الغالب يتغافلون عمن لا يجاهرهم ومن لا يخشون بائقته السياسية . ومن أجل ذلك ازدهرت كثير من الأفكار في داخل نطاق الجماعة الإسلامية ما لم يكن يهدد كيان الدولة . فظهر مذهب الاعتزال في داخل نطاق الجماعة الإسلامية كما ظهرت مذاهب العقد من الخوارج والمعتدلين من الشيعة وأوائل أهل الزهد والتصوف.

وقد كانت هذه بداية حسنة للتسامح في داخل حدود الجماعة الإسلامية . ولكن مع هذا لم يسلم بعض أصحاب الأفكار الغريبة من أن يأبه إليهم الولاة ويخشوا خطرهم في أواخر العهد الأموي.

على أن أكثر ما حدث في هذا القبيل لم يخل من لون سياسي . إذ تغليب النظرة السياسة كان هو السائد الأعم في أكثر ولاة بني أمية وخلفائهم إزاء الجماعة الخاضعة لسلطانهم .

وأول محاربة فعالة لحرية الفكر في داخل نطاق الجماعة ، شهدها الإسلام ، هي ما كان من أمر الزندقة في أيام المهدي . ونقول إنها كانت محاربة لحرية الفكر، إذ أن سائر من اتهموا بالزندقة لم يكونوا من غمار العامة وإنما كانوا من رجال الثقافة المشغولين بدنيا الفكر. ثم إنهم لم يكن لهم لون سياسي واضح المناوأة للدولة القائمة .

والزندقة في جملتها باب واسع يحتاج إلى دراسة مفصلة . وقد اتسع معناها اتساعًا كاد يدخل في سائر المجون والتحرر في العبارات الدينية وما يجري مجرى الظرف والسخف بين طبقات الشعراء . ولكن يبدو أن اللفظ في أصله ما أُريد إلا ليطلق على ضرب من المفكرين متميز بنفسه ، كان يدعو إلى المذهب المانوي الفارسي الأصل ، ويقابل

بينه وبين الإسلام مقابلة تفضيل . وليس ههنا مكان استقصاء الدواعي والدوافع والمؤثرات التي أدت إلى نشأة هذا المذهب ونَفاقه . ويكفي ههنا أن نشير إلى أن الثلث الأخير من القرن الأول الهجري ، شهد اتجاهاً قويًا نحو الزهد مصدره يأس المفكرين والمرهفي الحس من المثقفين من صلاح السلطان ، وتحقيق العدالة بين الناس . كما شهد اتجاهاً قويًا بين طبقات الموالي والأعاجم ضد النعرة العربية التي اتسمت بها عصبية السلطان الأموي . ولم تخل هذه العصبية في شدة عنجهيتها من أن ادعت نوعاً من الاحتكار لدين الإسلام ، بحيث يكون العربي أصيلاً فيه ، والأعجمي دخيلاً عليه . فاتفقت النعرة الشعوبية والبحث عن فلسفة زهدية معاً، على التماس مذهب يطعن في الإسلام من حيث إنه دين العرب وعنوان سيادتهم ، ومن حيث إنه المصدر الدستوري لترف الخلفاء والولاة وما كانوا يتسمون به من الجور القاذف لليأس في قلوب المصلحين . فكان هذا المذهب هو مذهب المانوية الفارسي ، وهو مذهب فيه كثير من الفلسفة الهندية ، ينسب قوى الحياة كلها إلى عنصري الشر والخير المرموز لهما بالظلمة والنور - ويرى أن الجسد داخل في نطاق الظلمة وأن الروح داخل في نطاق النور وأنه لا سبيل إلى الخلاص إلا بتغليب النور على الظلمة من طريق الزهادة والتقشف واطراح اللذات .

وفي ثنائية المذهب ما ترى من المعارضة الجوهرية للوحدانية القاطعة التي هي طابع الإسلام . كما أن فيه من تكريم النور طعناً صريحاً في قصة الخلق بحسب ما رواها القرآن " إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرًا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له

ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى وكان من الكافرين قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين " .

ولا أشك أن بشارًا ما أراد [إلاَّ] إلى المجانة وإغاظة خصومه واصلاً وأصحابه حين قال:

إبليس خير من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار

والذي يشعرنا أنه إنما أراد إلى المجانة والإغاظة قوله يا معشر الأشرار . لأنه لا يعقل أن يكون يدين بمذهب المانوية ويؤمن أن العنصر البشري شرٌّ كله.

والرواة يخبروننا أن واصلاً جهر بأنه يود لو ذهب رجل يغار على الدين فبعج بطن بشار جزاءً على قولته هذه .

وهذه القصة – على أنها لم تسق إلا على سبيل الملحة وفي باب الأخبار الأدبية – تكشف لنا عن نوع الشعور الديني الذي دعا إلى تتبع الزنادقة وتقتيلهم .

وما أحسب أنه لو كان الزنادقة أصحاب مذهب في داخل نطاق الإسلام قد كان يصيبهم ما أصابهم . إذ قد نرى أن السيد الحميري مثلاً لم يصبه أدنى سوء مع ما أغرق فيه من سب الصحابة . وغير السيد الحميري كثير من الشعراء مجنوا ما شاءوا ثم سلموا . ولعل بشارًا لو لم يتعرض للمهدي وليعقوب بن داود بالهجاء ما كان يصيبه أدنى أذى.

وإنما أتي الزنادقة من أنهم راموا الطعن في الإسلام نفسه وهدمه من أساسه . وعلى أنهم لم يكونوا يشكلون في الحقيقة خطرًا سياسيًا ، فقد أثار هذا من صنيعهم حفائظ العلماء ، وبخاصة المعتزلة. ويبدو أن المعتزلة منذ مبدأ نشأتهم قد كانت تخالطهم ثقة عمياء في صحة آرائهم تبعد بهم عن التسامح ، وتهيؤهم لأن يبطشوا بالخصوم . ولا هكذا كان أهل السنة. إذ أنهم لم يعرفوا باسم واحد ، ولم ينتظموا في صف واحد حتى زمان المهدي ، لا بل حتى زمان طويل بعده . فقد كان منهم أهل الفقه ، وفيهم أهل الحديث ، وفيهم أهل القراءات ومنهم أصحاب القياس ومنهم أصحاب الظاهر وهلم جرا - وكانوا في جملتهم ينفرون عن استعمال المنطق والخوض في أبواب التأويل . وإنما تصدى لهذا الجانب أوائل المعتزلة من لدن واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد إلى إبرهيم النظام ومن تلوه . والمؤرخون يخبروننا أن المنصور كان حسن الرأي في عمرو بن عبيد . ولا نستبعد أن كان أوائل المعتزلة في جملتهم قريبي المنزلة من الخليفة العباسي، لأنهم كانوا ذوي اللسن والجدال بين علماء الجماعة (إذ في ذلك الزمان لم يحتدم الخلاف كل الاحتدام بين المعتزلة وسائر أهل السنة) ثم كانوا بعد بعيدين عن الدفاع عن أهل البيت وحقهم في الخلافة مع كثرة لسنهم وخوضهم في المسائل التي كان يخاض فيها آنئذ . بل قد كان ولاؤهم للخلافة حقيقة لا ريب فيها . وما ظهر التشيع في المعتزلة إلا في عهد متأخر . وإن كان يجوز أن يكون الاعتزال نفسه قد اقتبس بعض آراء الشيعة فيما يختص بالأمور الدينية المحضة في مستهل نشأته ، كما اقتبس في زمان الجاحظ من علوم يونان التي يسرتها الترجمة.

وإذا صح هذا التأويل، فيكون المعتزلة هم الذين أثاروا المهدي إلى حرب الزنادقة. ويقوي هذا الترجيح من جانبنا أن المعتزلة هم الذين كانوا يتصدون دون غيرهم من فرق العلماء إلى نضال هذه الطائفة الجديدة الخطرة من المفكرين . وما عليك إلا أن تنظر في البيان والتبيين لتجد شاهد ذلك فيما ساقه الجاحظ من أخبار واصل وخطبه وما استشهد به من شعر صفوان الأنصاري يرد على بشار إذ فضل إبليس على النار وفي كتاب الحيوان شواهد أخرى كثيرة من جدال المعتزلة . والقصة التي رويناها آنفاً عن واصل إذ ود أن لو وجد من يبعثه فيبعج بطن بشار ، ترينا أنه لم يكن يرى بأسًا من استعمال العنف لافحام الخصم اللدود . ولا يعقل أن يكون المهدي العباسي قد انتبه من تلقاء نفسه إلى تقتيل الزنادقة إن لم يوقع ذلك في نفسه بعض خاصته من العلماء . ولو قد كان هذا الخاصة أو هؤلاء الخاصة من رجال السنة ، لكان قد بلغنا نبؤهم إذ هذا مما يجوز الافتخار به في باب الدفاع عن الإسلام . وما أحسب أنه خفيت عنا أسماء من حملوا الخليفة على الايقاع بالزنادقة إلا لأنهم كانوا من أوائل المعتزلة ، وتناسى مؤرخو السنة فيما بعد أسماءهم أو أنسوها إذ لم يكونوا حراصًا على نسبة ما عسى أن يفتخر به مفتخر إليهم .

وسرعان ما خرج تعقب الزنادقة من باب الدين إلى السياسة ، واتسع معنى الزندقة حتى أمكن لكثير من ذوي التآمر أن يوقعوا بأعدائهم وبخصومهم السياسيين من طريق اتهامهم بالزندقة . ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد أن أخذ السيف نصيبه الأوفر من أكثر من كانوا يقولون بالمانوية .

وقد تهيأ الجو بعد خلافة الرشيد لأن يحتل علماء المعتزلة منازل الصدارة في الدولة . وإن صح ما ننسبه إليهم من أنهم هم كانوا مصدر التعقب للزنادقة والإيقاع بهم، فإن هذا الروح من عدم التسامح لم يزده وصولهم إلى مراتب السلطان إلا استشراءً . فالتفتوا إلى علماء الجماعة يحملونهم حملاً، بحد السيف والسوط على تقبل آرائهم في الجدل والتوحيد وتفصيلات الدين . وكان ما هو مشهور من أمر فتنة خلق القرآن في زمان المأمون . ولا يمكن الاعتذار للمأمون بأي حال من الأحوال عن المسلك العاتي المفتات الذي أخذ به العلماء أخذاً عنيفاً ليقولوا بخلق القرآن . وقد استمرت فتنة القرآن طوال أيام المأمون والمعتصم والواثق . وقد اصطلى بنارها جماعة من العلماء أهمهم الإمام أحمد بن حنبل، الذي آثر التعذيب على أن يقول بخلق القرآن . وقد كان موقف ابن حنبل هذا فاتحة صفحة جديدة في تأريخ الإسلام، إذ قد أثبت به وجود أهل السنة من حيث إنهم فرقة قائمة لها صلابتها وصمودها وخطرها . ولعلما يصح إن يسمى بن حنبل بموقفه هذا المؤسس الحقيقي لمذهب أهل السنة والجاعل له - بعد أن كان اتجاهاً عاماً بين علماء الحديث والفقه والمقتدين بهم - منظمة ذات كيان حي، وقوة على الدفاع وقابلية لمحاربة كل ما خالفها حربًا عنيفة لا هوادة فيها .

وما هو إلا أن صار الأمر إلى المتوكل بعد موت الواثق ، وقد كان هذا منحرفاً عن الاعتزال ، حتى هب أهل السنة إلى الاستفادة الكاملة من هذا التغير . وقد كان قربهم إلى قلوب العامة ، يغنيهم عن أن يحاولوا حمل الناس على مذهبهم من طريق العنف المطلق كما فعل

المعتزلة . فاكتفوا بإيغار صدر الخليفة على جميع خصومهم . فأوقع بالشيعة، وأهلك ابن الزيات، وأقصى أحمد بن أبي دؤاد ، الذي كان يدير فتنة خلق القرآن أيام الواثق والمعتصم .

وما إن جاء القرن الرابع حتى كان المعتزلة قد اختفوا من ميدان النضال الديني، فلم يبق منهم إلا أفراد قليلون لا يُخشى منهم خطر . وبقي الشيعة وحدهم يمثلون الخصم الرئيس لأهل السنة . وقد شهدت بغداد إلى سقوطها ضروبًا من الشغب والتناحر بين طوائف الشيعة والسنة، على أن السنية قد كانت لهم الغلبة بعد أن تمكنوا من إيجاد حلول وسطى تجمع بينهم وبين الصوفية . وعلّمهم طول النضال أساليب متنوعة في التنكيل بخصومهم أبقى أثرًا من الأسلوب الطائش القليل الجدوى الذي لجأ إليه المعتزلة أيام فتنة القرآن . ومن أهم هذه الأساليب تنظيم مذهبهم تنظيماً جديدًا والدعاية له على نطاقٍ واسع ، مع استبعاد كل مؤلف يشتم منه الخلاف لهم . وقد نصبوا أنفسهم حفظة للدين وسدنة . وكانت الحنابلة منهم تنبري بالنكير العنيف لكل أمرٍ تحس فيه إخلالاً عملياً أو فكرياً بالدين . كانوا يخرجون في بغداد فيهدمون دور الفساد ويريقون آنية الخمر ويسألون الرجل إذا رأوه يماشي امرأة إن كانت محرمًا له ، فإن اتهموه ضربوه ضربًا مبرحاً ، وإذا رأوا رجلاً مع غلامٍ صنعوا به مثل ذلك . ومما يدل على أنهم كانوا أيضًا يتعقبون الأفكار فيحاربون أصحابها إن بدا لهم ما يتهمونهم فيها ، قصتهم مع محمد بن جرير الطبري ، فقد أنكروا عليه إنشاده :

سبحان من ليس له أنيس ... وماله في عرشه جليس

واعتدوا عليه بالضرب وأثاروا العامة ضده حتى إنه لم يُدفن إلا سرًا خشية أن تحول العامة دون دفنه في مقابر المسلمين . وموقف ابن عقيل الحنبلي من المعري دليل آخر إذ طفق يؤلب الناس عليه ويحرض على العلماء على قتله . ولو قد كان المعري مقيمًا ببغداد لقد كان يعـز عليه أن ينجو . وفي ياقوت ما يدل على أن إحراق الكتب التي يشـتم منها نفس الخروج عن الدين ، كان أمرًا معروفاً مأخوذاً به – وذلك ما حكاه ياقوت من أن أحد خزنة دور الكتب أراد ليتقرب إلى الله بإحراق كتاب الفصول والغايات . ثم لماذا نبحث عن الأدلة علـى ذلـك فـي القصص والأخبار . فأمامنا فهارس الكتب تنبئنا عن مؤلفات عدة قـد ضاعت كل الضياع . وما أحسب أن انضواء كثير من المعتزلة إلـى الشيعة بعد زمان الواثق إلا قد كان منهم طلباً لكنف يلوذون به . مـن هؤلاء ابن أبي الحديد صاحب نهج البلاغة . كمـا أن كثيـرًا مـنهم انضموا إلى الصوفية ، ومن هؤلاء أبو حيان التوحيدي . وقد نبه ابـن عقيل الحنبلي على موضعه وجعله أحد زنادقة الإسلام الثلاثة بل ذهب إلى أنه شرهم جميعاً وأشدهم خبثاً .

ثم بعد انتهاء بغداد واستيلاء الترك والمماليك علـى أكثـر دار الإسلام صار مذهب السنية هو الغالب . وحيل دون تدريس أي مذهب آخر سواه إلا بين الفرق الضئيلة القليلة الباقية وكان الشيعة أهم هؤلاء . وكانت هذه الفرق جميعاً قد عسر عليها البقاء بين أهل السنة فالتمست لأنفسها مخابئ في أطراف العالم الإسلامي وظلت كذلك إلى يومنا هذا اللهم إلا ما كان من أمر الشيعة فإنهم استطاعوا أن يبسطوا نفوذهم على فارس في أواخر القرن الخامس [عشر] وأوائل السادس تحت سلطان

الدولة الصفوية وأعملوا السيف في أهل السنة حتى قهروهم على مذهب التشيع . ومنذ ذلك الزمان صار للشيعة كيان مستقل بإقليم إيران وازداد عددهم زيادة لم يبلغها من قبل .

هذا وبعد أن فرغ السنية من إبادة الفرق المناوئة لهم أو ألجائها إلى الآفاق البعيدة حيث لا يكون لها أثر أو يخشى من جانبها خطر ، عكفوا على الكتب التي بأيديهم يتعقبونها وينقحونها ويستبعدون منها كل ما لا يطمئنون إليه في باب التعليم . ولم يكن لهم من بد أن يستبقوا كتب التصوف على ما تشتمل عليه من النظريات الغريبة ، لا لشئ إلا لأنهم لم يتمكنوا حقاً من التغلب على المذاهب الأخرى ، إلا بعد أن قبلوا التوسط في إطار المذهب السني . كما أنهم لم يجدوا بدًا من استبقاء بعض الكتب الأمهات المشتملة على علوم هامة . فلكيما يحولوا بين الناشئ وبين أخطار هذه الكتب عكفوا على صناعة المتون والشروح التي تلخص المشهور المجمع عليه ثم تعود فتبسطه من جديد وتشير إلى كل الآراء الأخرى من زاوية النظر السنية وتنبه إلى مواضع الضعف فيها وإلى ضرورة تجنبها .

وقد ألف الزمخشري كتابًا نفيسًا في تفسير القرآن ، مختصرًا كأحسن ما يكون الاختصار . وتنبه العلماء إلى ما فيه من عظيم الفوائد. غير أنهم تنبهوا أيضًا إلى ما فيه من أنفاس الاعتزال فانبروا إلى كتابة الحواشي حوله كيما يطمئنوا تمام الاطمئنان على أن اعتزالها لن يؤثر في قلوب من يقرؤه من طلاب التفسير .

وخلاصة كل هذا أن الإسلام قد أظل عليه العصر الحديث وهو لا يسمح بحرية النقاش والجدل ولا يتسامح فيها قط بالنسبة للمسلمين

أنفسهم . ولم يكن عدم التسامح هذا ظاهرة بين السنية وحدهم بل الفرق الأخرى ، التي انتصر السنيون عليها قد اتخذت لنفسها أسلوبًا مماثلاً . الشيعة في فارس لا يقبلون خروجاً من أفراد التشيع عن مذهبهم وكذلك جماعات الاباضية بشمال إفريقية والزيدية في اليمن .

ومن القضايا المسلَّم بها الآن أن المُسلم قد يكتب ليُبدي رأيه في أي أمرٍ شاءه إلا أن يكون ذلك الأمر دينيًا . فإنه حينئذ ينبغي أن يحترس خشية أن ينسب إلى الابتداع . ومن المؤسف حقاً أن كثيرًا من الآراء التي كان يقول بها كثير من كبار مفكري الإسلام في زمانٍ مضى ، قد صارت الآن في حيز المحظور المنهي عنه . لأن المتون والشروح لم تذكرها . وبحسبي ههنا أن أستشهد بفن التفسير وحده . فإنك إذا نظرت في تفسير الطبري وجدته رحبًا فضفاضاً مشتملاً على كثير من التأويلات البينة الجريئة ثم إنك إذا نظرت في تفسير الزمخشري، وهو تفسير حسن للغاية ، وجدته أضيق أفقاً من تفسير الطبري ، وأسرع إلى اتهام بعض التأويلات بأنها كفر وخروج عن الملة، وقد كان الزمخشري يكتب في زمان جعل التفكير الديني فيه يتصلب ويتحجر . ثم إنك إذ نظرت في تفسير النسفي ثم الصاوي على الجلالين وجدت أن كثيرًا مما يذكره الطبري مسكوت عنه أو مذكور ليهاجم ولينبه على خطورته وخروجه على ما عليه تعاليم الملة . من أمثلة ذلك قصة الغرانيق التي تذكر بمعرض تفسير قوله تعالى في سورة الحج : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي إلا أذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته . وفي عصرنا هذا الحديث نجد المفسرين لا يزيدون على بسط مختصرات المتأخرين وإحاطتها بضروب من

التأويلات الجديدة . وقلَّ منهم من يحاول الرجوع إلى أصل قديم . كل ذلك خشية الوقوع في البدعة .

هذا وقد صحب هذا الجمود وهذا الإصرار على عدم التسامح، تضييق آخر في باب الفكر جاءت به ظروف التطور، من دون أن يعمد أحد عليه عمدًا مباشرًا. وقد بلغ هذا التضييق نهايته القصوى في عصرنا هذا الحاضر، بالرغم مما ندعيه لأنفسنا من ضروب التفنن والتحرر.

ذلك أن انقطاع مادة الاجتهاد بانتهاء الأجيال الأخيرة من الموالي ومن أخذوا منهم ، بعد أن انتقل السلطان إلى الأعاجم الأقحاح من الديلم والترك ، أحدث ما سماه العلماء من بعد بقفل باب الاجتهاد . فطفق طلاب العلوم الدينية وجمهرة المثقفين لا يعدون الاطلاع على آراء رجال المذاهب والاقتداء بها ، حتى إذا احتاج أحدهم إلى إصدار رأي من عنده في أمر كائناً ما كان من الأمور، رأى عليه لزامًا أن يستند في ذلك إلى قول شيخ يسند أقواله إلى أحد الشراح المعروفين .

وقد دعا هذا التحجر بعض جلة العلماء إلى الثورة والدعوة إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة، على رأس هؤلاء ابن تيمية وابن قيم الجوزية . ولكن دعوة هؤلاء لم تصادف أذناً صاغية . وحين أصغى إليها المصغون، ما كان منها إلا أن تمخضت عن مذهب متطرف بعيد جدًا عن حاق الاجتهاد المحض .

ثم إن حرص العلماء على سلامة العلم وعلى أن يكون القائمون بإرشاد الناس على هدى وبينة تمسكوا تمسكاً شديدًا بنظام الإجازات وبالسند عن الأشياخ . وانضاف إلى هذا ما كان يلح عليه الصوفية من ضرورة التلقي عن الأشياخ على سبيل التتلمذ وأخذ الطريق . فيكون

المرء أول أمره مريدًا ثم لا يزال هكذا يرتقي حتى يقدر على أن يستقل بنفسه . وربما ظل مريدًا طول عمره .

فزاد هذا من التمسك بنظام الإجازات والسند والحصول على إذن المشايخ قبل التصدر للتعليم وما بمجراه . ولما جاء العهد الحاضر ، فتحت أنواعٌ جديدة من المعاهد لا تمت إلى الدين بصلة . ولم تغفل الدولة كل الغفلة عن التعليم الديني . ففرضت له جانبًا من المال . غير أنها أولت عنايتها كلها لهذا التعليم المدني الجديد . وما مر حين من الدهر حتى صارت في العالم الإسلامي هيئتان من هيئات التعليم إحداهما مدنية بحتة تعلم علوم النظر المدنية والأخرى دينية بحتة تعلم علوم الدين . واضطرت ظروف العصر إلى الاعتماد على التعليم المدني اعتمادها الأول في شئون الإدارة وما بمجراها من تصريف الأمور . ولما غلب التسيطر الأجنبي على سائر بلاد الإسلام صار التعليم المدني وحده هو السُلم إلى الوظائف الواعدة بالجاه والمال . وانحصر التعليم الديني في تهيئة طلابه ليكونوا قضاة شرعيين وأئمة في المساجد ومأذونيين وما هو بهذا المجرى .

وما مضى زمان حتى صار الجيل الجديد من المتعلمين ينظر إلى من تلقوا التعليم الديني نظرة لا تخلو من عجب – كأنما يرون فيهم لونًا من ألوان المتاحف والآثار . ورضي هؤلاء في جملتهم بأن يكونوا عجبًا ثم استغلوا هذا العجب ليستأثروا من طريقه بجانب الدين استئثارًا لا ينازعهم فيه منازع . واتفق أن هذا الاستئثار – أو أن دعوى الاستئثار – كل ذلك مما كان يلائم عقلية الحاكم الأجنبي المسيحي المعتاد على أن يستأثر القسس بأمر الدين ويكونوا هم المرجع والحجة

النهائية فيه . وما هو إلا قليل حتى صارت المعاهد الدينية ضربًا من المؤسسات الكنسية محتكرة كل الاحتكار للتعليم الديني ، مدعية لنفسها فيه الحجة القاطعة، منكرة بلسان الحال على سائر المسلمين أن يرجعوا إلى كتب الدين ويتقنوا علومها ويجتهدوا فيها لا لشئ إلا لأنهم لم يحصلوا على شهاداتها هي.

ومما زاد أمر هذا الاحتكار تعقيدا والتواءً قيام الجامعات المدنية التي تعطي خريجيها شهادات البكالوريوس فما بعدها.

ولا بأس ههنا من الاستطراد بأن مفهوم الشهادات في أكثر البلاد الإسلامية الآن مفهوم فاسد للغاية. إذا الشهادات في أوروبا ما هي في الحقيقة إلا إشعار بمستوى خاص من التدريب يؤهل صاحبه لطلب العلم إن برز بروزًا واضحاً ولأنواع أخر من العمل إن كان دون ذلك . أما ههنا في البلاد الإسلامية فقد صارت الشهادات تدل على التخصيص والتحصيل . وإنك تسمع الخريج يقول لك لقد تخرجت بدرجة جيد أو جيد جدًا وهو مقتنع عند نفسه بأنه قد جمع علوم الأولين والآخرين ، ثم لا يكون بينه بعد هذا وبين الاستمرار في التحصيل من نسب أو صهر. ولعله أن يروم الإنتاج والتأليف إن كان ذا طموح أدبي أو نحوه، فلا يزيد على أن يجتر ما درسه من محاضرات من مدرسين لعلهم هم أيضًا لخصوها من الكتب من دون أن يحسنوا التمحيص أو يجنحوا إلى الأصالة .

وقد أدى تحجر الشهادات هذا وتحجر عقلية أصحابها إلى نوع من الاحتقار لها في المجتمعات الإسلامية. فأحسب أن سر هذا الاحتقار منشؤه في الأصل قد كان ازدراء الحكام الأوربيين لحملة الشهادات غير الأوربيين مدفوعين في ذلك بدافع الشعور بالتفوق العنصري . وقد

شهدنا نحن ههنا كيف كان الإنجليز لا يستنكفون عن إظهار السخرية من الشهادات التي يحصل عليها الشبان من المواطنين ويعززون هذه السخرية بترجيح ظاهر من جهتهم لمن يسمونهم أصحاب التجارب، من الوطنيين الذين يصانعونهم ويتملقونهم . وبعد زوال الاستعمار بقيت رواسبه. أصحاب الشهادات يحسبون أنها كل شئ . وأصحاب التجارب المزعومة تدفعهم كبرياء الجهل لاحتقار الشهادات والإصرار على إثم هذا الاحتقار. وأصحاب الشهادات منتصرون آخر الأمر لا ريب، لأنهم مستمسكون بحجة لها وجه واضح مقبول . ولكن الشهادات حين تنتصر لن تزيد على أن تكون في ذات نفسها إلا شكلاً ليس تحته كبير معنى من معاني العلم.

والمعاهد الدينية قد تيقظت بأخرة إلى ضرورة مسايرة التعليم المدني ومجاراته. وما هو إلا أن صارت المعاهد تمكن خريجيها هي أيضًا من الحصول على شهادات مدرجة، وما هو إلا قليل حتى صارت هذه الشهادات الدينية ذات طابع يشبه طابع الشهادات المدنية ، وذات قيمة مادية تشبه قيمتها، بحيث يحصل صاحب شهادة كذا على وظيفة كذا - ونشأ من الخلاف بين طبقي أصحاب الشهادات في علوم الدين وأصحاب التجارب شئ شبيه بذلك الذي نشأ في دنيا الوظائف الحكومية. وأمر الدين آئل بسرعة إلى احتكار كامل شامل يشبه الاحتكار الكنسي في دنيا المسيحية . وبدهي أن في هذا خروجًا كل الخروج عن منهج الإسلام القويم، الذي يجعل باب العلم أبدًا مفتوحاً. ولا ريب أن تحصيل أصحاب الشهادات الدينية اليوم أقل بكثير من تحصيل تلاميذ المعاهد الدينية في الدهر الأقدم حين لم تكن ثم شهادات إلا الإجازات الشخصية يعطيها العالم لمن يثق به أنه عالم .

والحق أن الشهادة الشخصية لا زالت هي القياس المعتد به في دنيا العلوم الحديثة. لأن شهادة العالم أقوى وأعمق حتى من شهادة لا شخصية يحصل عليها التلميذ عند الجلوس لأوراق بأعيانها فيها أسئلة بأعيانها عسى ألا تتناول إلا طرفاً ضئيلاً من باب العلم المراد إتقانه وعسى ألا تدل الإجابة عنها أبدًا على أصالة صاحبها أو تمكنه من فنه. حتى ولا شهادات الدكتوراة والماجستير لها هذه الدلالة. إذ هاتان الشهادتان تدلان على معرفة منهج البحث أكثر من دلالتهما على التحصيل .

وإذ تبين هذا ، يتبين أي خسارة خسرناها بتوجيه معاهدنا إلى اتجاه الشهادات ووسمها بسمة الاحتكار لفن الدين . ولا يخفى أن احتكار علم الدين لفئة بعينها من الناس من شأنه أن يبعد به كل البعد عن روح التسامح الذي به وحده يُرجى للمجتمع الإسلامي أن يعد ومرة أخرى إلى أحياء تراثه والتفكر فيه واستخلاص سبيل الخلاص من بين فهمه وفهم مشاكل العصر الحديث . ولأبين لك كيف أن التسامح لن يكون مادامت المعاهد القديمة تدعي احتكار التعليم الديني . والدولة تقرها على هذه الدعوى أضرب لك مثلاً ما ذكر أنه قاله أحد المشائخ الدينيين ، إذ وجد نفسه مضطرًا لأن يفصل بعض طلبته الذين بدت منهم جوانب من حرية الرأي تتنافى مع المتواضع عليه من مبادئ السنية التي تدرس في معهده الديني فقد ذكر أنه قال إن حرية الرأي محلها الجامعات. أما المعهد الديني فيعد طلبته إعدادًا خاصًا ولا يسمح لهم بمثل هذه الحرية.

وهذه حجة لابد للمشائخ من التمسك بها ما دامت المعاهد الدينية تدّعي الاحتكار لأمر الدين لأنهم يحرصوا حينئذ على أن يُعرفوا عند

الناس أنهم هم وحدهم الذين يقدرون على إعطائهم مرشدين دينيين ملتزمين بالمقبول المتواضع عليه . وأن أي امرئ لم يتخرج من بين جدران معاهدهم أو من بين جدران المعاهد التي على شاكلتها ، فليس بذي قول في الدين.

هذا ولا يخفى أن حجة الشيخ المذكور في أن حرية الرأي محلها الجامعات أما المعاهد الدينية فهي مبنية على عدم الحرية ، تخفي في باطنها خطرًا عظيماً. وذلك أن مشايخ المعاهد الدينية المحتكرين لشئون الدين يقدرون أن ينصبوا من أنفسهم رقباء على الدين، وحقيقة احتكارهم تؤهلهم لأن يكونوا ناصحين للدولة في كل الشئون الدينية. ويقدرون مثلاً أن يدعوا بأن منهم المؤسسة الفلانية والشخص الفلاني خارج عن الدين، متى شاءوا . ولا يخفى أن في هذا من حجر الحرية الدينية على الناس ما فيه . والنتيجة المنطقية لما ادعاه الشيخ المذكور من أن المعاهد الدينية لا تسمح بالحرية الفكرية لطلابها ، هي أن المعاهد الدينية أيضًا لا تسمح للجامعات بما فيها أو بما تدعي أنه فيها من الحرية الفكرية . ومتى وجدت وسيلة فعالة إلى الحد من هذه الحرية لم تردد عن استعمالها .

وقد شهدنا كيف رفضت بعض الجامعات الإسلامية تسجيل رسالة للدكتوراة موضوعها الموازنة بين أصول القصص في القرآن وفي التوراة بحجة أن هذا فيه افتيات على جانب الدين وإشعار بأن القرآن أخذ من التوراة إلى نحو ذلك مما يجوز مثله بين المؤلفين البشريين، والقرآن كلام الله القديم لا يمكن أن يوصف بأن له مصادر في التوراة أو غيره من الكتب إنما والغريب في الأمر أن أحدًا لم يسمع ما الذي

قاله أو أراد أن يقوله صاحب الرسالة ، وإنما رُفضت الرسالة لمجرد لا دينية الفكرة، بحسب ما بدا للمسئولين في تلك الجامعة الذين كان يهمهم جدًا ألا تثور عليهم ثائرة رجال الدين.

ولو قد تأمل أولئك المسئولون قليلاً لرأوا أن القرآن نفسه يقول: " وإنه لفي زبر الأولين " وقد ذكر بعض المفسرين أن سورة سبح موجودة في صحف إبرهيم وموسى . فمسألة الموازنة بين الأصول من حيث هي لا تُدخل الإنسان في الدين ولا تُخرجه منه . إنما تخرج الإنسان وتدخله طريقة المعالجة وهذه لا سبيل إلى معرفتها إلا بعد الاطلاع عليها ولا سبيل إلى الاطلاع من دون أن نسمح للباحثين بالبحث وبإبداء آرائهم .

والحق أن التسامح من الناحية النظرية في شئون الدين مفقود بالكلية بيننا نحن المسلمين مع أنه وحده هو الذي يفتح الأذهان ويمكننا من التماس سبل الخلاص ، كما قدمنا لك آنفاً إننا لن نقدر على الاستفادة الحقة بما عسى أن يكون صواباً في آراء المذاهب والتيارات الفكرية المختلفة بين جماعاتنا وأفرادنا إن لم نفتح لهم باب النقاش الفكري على مصراعيه ونتسامح في المعاملات بيننا حتى لا يكون لسلوكنا أدنى أثر في الحد من حرية هذا النقاش. إن هذا العصر عصر تتناحر فيه الأفكار والمذاهب أيما تناحر . وليس للمذهب الذي يريد الحياة إلا أن يعد نفسه إعدادًا كاملاً لهذا التناحر، وما من مذهب من المذاهب ينطوي على نفسه ويركن إلى الجمود من أمل في البقاء فضلاً عن الانتصار. ولعمري ان الإسلام في دهره القديم قد أعد لنفسه كل ما قدر عليه من عدة الأفكار، ولم يستنكف أن يستعمل منطق يونان وأن

يأخذ من فلسفة الهند، كيما يقوى على مناضلة البدع والأفكار والشرائع التي انبرت لتتحداه منذ القرن الثاني الهجري إلى السادس والسابع . وأضرب مثلاً لذلك الأشعري صاحب العقائد الأشعرية . ولا يمترينى أدنى شك في أن الأشعري لو حمل مذهبه إلى ابن عمر وابن عباس وجلة الصحابة الأوائل والتابعين ، لم يقدروا أن يدركوا الصلة بينه وبين توحيد الإسلام كما عرفوه هم وكما جاهدوا دونه بأموالهم وأنفسهم. وأضرب مثلاً آخر الإمام الغزالي وما تضمنه كتابه الإحياء من آراء المتصوفة والفلاسفة وعلماء الأخلاق الذين أخذوا بدون شك من فلسفات الأمم الأخرى ، كالهند ويونان . وإذ صح مثل هذا الاجتهاد عن الإسلام في دهره الأول ألا يصح مثله في دهرنا هذا ؟ وهل يكون اجتهاد في دهرنا هذا إن لم نستعرض كل رأي يعرضه أصحابه ونناقشه ونحاول أن ننفذ إلى أغواره ؟ ألسنا حقاً في حاجة إلى أن نسمع من أنصار السنة كل ما يريدون أن يقولوه ونناقشهم في ذلك وننتفع ما عسى أن يمكن الانتفاع به من أقوالهم من دون أن نجحف بهم في المعاملة ؟ أم لسنا أيضاً في حاجة إلى أن نسمع من الأحمدية ، ومن الإخوان، ومن الجماعة الإسلامية، ومن الأستاذ محمود محمد طه ومن المفكرين الباكستانيين وهلم جرا ؟ أليس يلزمنا أن نأخذ بالتسامح بقوة، حتى نقدر أن نسمع منهم ونناقشهم فنحصل بذلك على ما عسى أن يكون في آرائهم من فوائد ونبهرج ما عسى أن يكون فيها من زيف .. ثم إننا لن نكون من أولي البدع المدخلين في الدين ما ليس من أصله إذا دعونا إلى التسامح وأخذنا به، إذ التسامح كما قدمنا غير خارج عن أصول الدين ، بل هو أصل لا يدفع إذ يقول تعالى: لا إكراه في الدين

قد تبين الرشد من الغي ويقول تعالى: إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شئ وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين - والآيات التي تنحو هذا النحو كثيرة في القرآن . ولا يُمكن دعوى نسخها بآيات الجهاد إذ قد شرع الجهاد لدفع العدوان وقال تعالى: أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير.

ومن أوائل ما يدخل في باب التسامح أن نستغني بالكلية عن هذا الوضع الكنسي المتعصب الذي طغى على معاهدنا الدينية وجعلها تدعي لنفسها دون غيرها احتكار الدين ومواده .

ولعلك سائلي بعد: فأنى لنا أن نطمئن على سلامة المستويات في باب المعارف الدينية إن فتحنا المجال لكل من هب ودب . والجواب عن هذا السؤال يقودنا إلى الأمر الآخر الذي حدثتك عنه أول هذا الباب. وهو ضرورة إحياء العلوم الدينية . وهذا حين نأخذ في الحديث عنه.

***

متى جعلنا التسامح بأوسع معانيه أصلاً من أصول مجتمعنا ، كما قد أراد له الله أن يكون، فإنا ستحملنا الضرورة المنطقية حملاً على أن ننتهج في التعليم الديني منهجًا غير الذي نحن آخذون به الآن فأول شئ ربما استغنينا بالكلية عن هذه المؤسسات التي تسمى بالمعاهد الدينية وينسب إليها احتكار أمر الدين أجمعه. وتواجهنا حينئذ مشكلة ضمان استمرار التعليم الديني إذ وجود هذه المعاهد بوصفها الحامي - مهما نقل في نقده - يطمئننا على استمراره . ثم تواجهنا مشكلة المحافظة على مستوى رفيع من التحصيل الديني حتى لا ننسى ما ورثناه من علوم آبائنا وأولينا. وهاتان مشكلتان لا بد من أن تُحلا معناً. وعسى حل إحداهما أن يهيء حل الأخرى أو ييسر سبيله إن لم يأت به على الفور. ولابد من النظر في ثلاثة أمور حتى نبلغ إلى هذا الحل ، هي (١) التعليم العالي و (٢) تعليم العامة و (٣) تعليم الصغار.

التعليم العالي:

أما التعليم العالي فمرادنا به ذلك التحصيل المستبحر في شئون الدين درساً وتحصيلاً. والسبيل إليه الآن -- في الكثير الأغلب - كما قدمنا يلتمس من الدرس في المعاهد الدينية بغية الحصول على شهاداتها. وقد ذكرنا لك رأينا في هذه الشهادات . والذي نراه أن يتجه التعليم العالي سوى هذا الاتجاه . وذلك بأن يجعل طرفاً من التعليم

الجامعي . وأول غرض نصيبه من مثل هذا الاتجاه أن نتخلص مرة واحدة من هذا الانقسام الروحي الفكري في مناهجنا العلمية إذ هي الآن مشطورة بين ما يسمى التعليم المدني والتعليم الديني . ثم إننا نصيب غرضا آخر أهم وأعظم وهو أننا سنكون بمثل هذا الاتجاه قد أنقذنا التعليم الديني بأسره من صفة الأثرية التي يصفه بها أكثر المثقفين المعاصرين، وجعلناه جزءًا متمماً لكياننا العلمي الجامعي ، شأنه في ذلك شأن سائر العلوم التي تطلب في الجامعات ، أو تتوفر الجامعات على الإعداد لها وتهيئة السبل لتحصيلها . ثم إننا أيضاً نصيب غرضا ثالثاً وهو أن التعليم الجامعي يلزم المشتغلين به أن تتسع صدورهم للبحث والنظر والمناقشة وأن يكونوا في كل ذلك متسامحين غاية التسامح . ونحن حين ننقل التعليم الديني العالي إلى ساحة الجامعة نتيح له أن يستفيد كل الاستفادة من هذه الحرية الفكرية التي يتطلبها المنهج الجامعي . ولا ريب أننا بذلك نكون قد أنقذناه من التحجر الذي ران عليه بأخرة ، وأعدناه إلى ما كان عليه – أو هيأنا له الطريق ليعود إلى ماكان عليه – من الحيوية والتفتح في أيام الاجتهاد الأولى .

ثم إننا نصيب أيضًا غرضًا رابعاً متفرعًا من هذه الأغراض، وهو أن نجعل نشأنا الذين يتعلمون تعليماً عصريًا حديثاً يهتم بالدين اهتماماً عصريًا جديداً ، في مكان الجهل والتجاهل وعدم الاكتراث الغالب على جملتهم الآن ، ذلك بأن الحياة الجامعية كما هي درس وتحصيل، هي أيضًا تلاقٍ اجتماعي وأخذ ورد إنساني في دائرة أوسع من مجرد المذاكرة والتلمذة ، وإعداد خلقي لما يقبل من أيام الحياة . ولا ريب أن وجود التعليم الديني العالي في الجامعة مما يجعله

يشارك - على أقل تقدير - في هذا التلاقي الاجتماعي وفي هذا الأخذ والرد وفي هذا الإعداد الخلقي ، كما لا يستطيع أن يفعل اليوم وهو بعيد منزوٍ محسوب من قبيل الأثريات .

هذا وإذ أدعو إلى أن يجعل التعليم الديني طرفاً من التعليم الجامعي ، فإني أرى ألا يوضع في البدء وضع العلوم المهيئة للشهادة الجامعية الأولى - أي أرى ألا يجعل الدين مادة للحصول على بكالوريوس أو أية شهادة من هذا الضرب في أول الأمر . ولكنما ينبغي أن تنشأ مؤسسة عالية من أجل العلوم في داخل الجامعة، مثل هذه المؤسسات التي يُطلق عليها اسم الإكاديميات . ويلحق بهذه المؤسسة علماء الدين ، من متخصصين في الفقه إلى متخصصين في التفسير والقراءة إلى غير ذلك . ويعهد إلى هؤلاء أمران معاً : أمر البحث في الأمور الدينية، وأمر إعداد الباحثين . وقد يجوز أن ينتمي إلى هذه المؤسسة بعض علية المفكرين المعروفين الذين تربطهم دوائر تخصصهم ببحث العلوم الدينية الإسلامية كعلماء اللغة والقضاة الكبار والمؤرخين الإسلاميين وكعلماء الآثار الإسلامية وكعلماء النفسانيات الذين لا يخلون من التعرض إلى بعض آراء المتصوفة ومقالات السلف في الرؤيا والأحلام ، وهلم جرا .

وينبغي أن يراعى في اختيار العلماء المشرفين على هذه المؤسسة أرقى ما ينبغي مراعاته من المستويات. فلا يكفي مثلاً أن يكونوا من أصحاب الشهادات العالمية من الأزهر، ولكن يجب أن يكونوا قد ألفوا في علوم الدين وشهد لهم العلماء المعروفون بالتبريز. ويكفي أن يكون المرء قد فرع وبرز في فن واحد من الفنون الدينية

ليلتحق بهذه المؤسسة، إذ ذلك أجدى من الاقتصار على شهادة عامة يكون صاحبها يشدو ذرءًا من هذا الفن ومن ذاك ولكنه غير عميق حقاً في واحد منها . ولا زالت في مجتمع الإسلام بقية صالحة من العلماء الأخيار الأبرار البحور. فموضع هؤلاء بدون ريب مثل هذه المؤسسة التي تيسر لهم أسباب التوفر على التحصيل والاجتهاد مع المناظرة الكريمة وتبادل الآراء النافع .

ولا يشترط في المؤسسة أن يكون نظام إدارتها على النحو الجامعي الذي في الأقسام – حيث يشرف على كل قسم أستاذ مسئول معه مساعدون ومدرسون ومعيدون . بل من الخير أن يؤجل مثل هذا النظام إلى حين يمكن إدخال نهج كنهج البكالوريوس وقد ألمعنا لك في مبدأ حديثنا أننا نرى ألا يجعل الدين في أول أمره مادة من مواد البكالوريوس ، وسنبين لك الأسباب من بعد إن شاء الله .

هذا والذي يحسن في إدارة مثل هذه المؤسسة أن يكون لها مسجلون كتبة يشرفون على جانب الإدارة المحض منها ، ويكونون طرفاً من الأداة الجامعية الكبرى في عملهم هذا. أما الأساتذة المكونون للمؤسسة فيكونون كلهم في مرتبة الزملاء المتفرغين للبحث والتحصيل على النحوالذي تسير عليه بعض كبريات الجامعات الآن، وقد كانت تسير عليه كثير من رواقات الإسلام ومدارسه في أيامه الذهبية. وجعل هؤلاء الأساتذة العلماء زملاء سواسية ، يفتح المجال أولاً أمام المبرزين من علماء الدين لينضووا تحت هذه المؤسسة ، انضواءً تامًا أو على سبيل الانتماء من دون أن يعترض ذلك ما يعترض انضواء المدرسين والمعيدين والأساتذة ومساعدي الأساتذة في الأقسام الجامعية من مراعاة

حاجة التدريس وميزانيته . ومن حق العالم الديني المؤلف المبرز النحرير أنى كان أن يلتحق بهذه المؤسسة إما زميلاً تام الزمالة وإما منتميًا . فإن كان له عمل يكتسب منه لم تحتج المؤسسة في النفقة إليه إلى أكثر من تيسير وسائل البحث له . وإن لم يكن له عمل ، فمن الواجب أن يكفى مثله مؤونة العيش بأن يعطى الزمالة الكاملة . ولن ينشأ من ذلك إنفاق طائل يعسر على خزينة الدولة التي تنفق على الجامعة تحمله . بل إن ما عسى أن ينتجه من عمل أن يكون له من القيمة المادية أكثر مما ينفق عليه. ثم إن عدد المبرزين المتفرغين للدرس والتحصيل والبحث قليل في كل زمان ومكان . وليس كل صاحب شهادة بعالم كما قدمنا .

هذا وإذ التخصص الديني على هذا المستوى الجامعي أمر جديد جدًا ، فإن إبعاده عن سير الأقسام المعروف أمره لازم ، حتى يتهيأ للزملاء التفرغ الكامل للبحث من دون أن تشغلهم ما تشغل أساتذة الجامعة الذين في الأقسام من مسائل الإدارة والتدريس المنتظم في جداول المحاضرات وما إلى ذلك .

ومع البحث كما قدمنا ، الإعداد للبحث . وهذا يتهيأ بأن يسمح لخريجي الجامعة المبرزين أن يتخصصوا في أي فن شاءوا من فنون الدراسة الدينية ، بتقديم بحث نفيس فيه ويعطون من بعد إجازة على هذا البحث على النهج المعروف في الأكاديميات العالية . ولا حاجة في مثل هذه الحال إلى وضع مناهج بأعيانها . ولا خطر يخشى من تدهور مستوى الدراسة الدينية . إذ الخريج المبرز يكون أبدًا ذا إلمام بطريقة التحصيل . وإذا أقبل على أي فن من فنون الدين ليبحث فيه فإنه لن

يحتاج من الزملاء إلى أكثر من الإرشاد والتشجيع والنقد والمناقشة وما هو بهذا المجرى ، مما نجده عادة في أساليب الإرشاد الجامعية لطلبة ما بعد الشهادة الأولى . وهنا نذكر لك لماذا لا نرى من الحكمة أن يوضع من البدء منهج للبكالوريوس أو ما شابهها . إن دراسة البكالوريوس في مدة جامعية معلومة يقتضي بالضرورة اختيار مواد وكتب من كتب الدين دون غيرها كما تدرس في نطاق اللوائح التي في الأقسام . ومثل هذا يمكن عمله إلا في العلوم التي اتفق أصحابها على مبادئ أولية عامة فيها تعطي طالبها أساساً وتمكنه فيما بعد من الاستمرار كعلوم اللغات والطبيعيات وما أشبهها . ولا يخفى أن العلوم الدينية لها مبادئ قد اتفق الناس عليها في الدهر الماضي . ولكن تلك المبادئ كانت مبنية على مناهج التعليم التي كانت معروفة في ذلك الزمان بوجه عام ، وعلى رأسها حفظ القرآن عن ظهر قلب مع متون أخرى . وهذا الأساس قد تغير تغيرًا جوهريًا إذ مدارسنا الآن لا تحفظ القرآن ولا تعلم شيئًا من المتون . إنما تعلم الناس مواد تمكنهم من اجتياز امتحان شهادة المستوى الثانوي وفي ذلك أصناف الرياضيات والجغرافية والطبيعة والآداب وهلم جرا . وبدهي أنه ما من أحد يروم يضع منهجاً لشهادة جامعية في الدين إلا هو محتاج لأن يجتهد اجتهادًا جديدًا ، ليضع منهجًا ينقل علوم الدين على الأساس الذي ذكرناه، وهو كما ترى كلا أساس . ولن يخلو في اجتهاده هذا من العجلة والارتجال. ولعله أن يطالب المدارس الثانوية أن تتعاون معه بإدخال مادة كذا من علوم الدين ومادة كذا .... ويتجلى من هذا أن الطالب الجامعي الذي يتخرج بشهادة بكالوريوس مكونة في جوهرها من برنامج مرتجل ، لا يجوز بحالٍ من الأحوال أن يسمى خريجاً يعتمد عليه في علوم الدين .

وعسى أن تقول لي فهذا الذي ذكرته حجة عليك في الذي قدمته من نقل علوم الدين إلى الجامعة، وعسى أن تحتج بأن المعاهد الدينية القائمة الآن تراعي أن تمهد لطلبتها أساساً في علوم الدين منذ البداية فيمكنهم بذلك أن يستوعبوا المواد الرئيسية في أقسامها العالية ، وأن يكونوا علماء بحق عند التخرج .

والجواب عن هذا عتيد . جانب منه ما قدمناه لك من خطورة انقسام الثقافة إلى لونين لا يربط بينهما رابط أحدهما يدعى العصرية والآخر ينسب إلى الأثرية والمجتمع يكون بينهما منقسم الشخصية لا محالة، غير بالغ أن يكون عصريًا وغير مستطيع أن يكون أثريًا. وجانب منه أن المعاهد الدينية تحاول أن تصير عصرية الآن بأنواع من التعديل تجريها في برامجها من شأنها أن تبعد بها شيئاً فشيئاً عن أساسها العلمي الأصيل، وتجعلها مسخاً كهنوتياً من المدارس المدنية . ونحن لا نشك أنه لو استمرت المعاهد العلمية في تعديل برامجها بحيث تدخل فيها أصناف الجغرافيا والتأريخ والطبيعة والعلوم النظرية واللغات الأجنبية فإن تلاميذها سيطالبون بالجلوس للشهادات التي تؤهل لدخول الجامعة وسيصيرون آخر الأمر تلاميذ مدنيين ويكون الاسم الديني حينئذ على غير مسماه لأن كل توسع في باب العلوم الحديثة سيكون على حساب العلوم القديمة. وهذا الاتجاه واضح نشاهده الآن في كثير من معاهد الدين .

وجانب ثالث هو أن الأساس التي تعطيه المعاهد الدينية في جملته غير جيد حق الجودة لأن كله قائم على التحفيظ المحض وعلى الجدل الإيساغوجي وقد نشاهد في كثير من خريجي المعاهد الدينية في سائر

بلاد الإسلام أن اللحن فاش بالرغم من تحفيظ الألفية وكتب البلاغة وضربة لازب أن يكون يقارن مثل هذا اللحن في اللسان لحن في التفكير إلا من رحم الله . ثم على فرض أن اتجاه المعاهد الجديد أهمل التحفيظ فإنه بدون شك سيجعل في مكانه الملخصات وهو الاتجاه الذي غلب على كثير من معاهد العلم في بلاد الإسلام حين رامت أن تحاكي مناهج الغربيين وفي ذلك من الخطر على التفكير ما لا يخفى .

هذا – وإذ فرغنا من هذا الاستطراد في الإجابة نعود مرة أخرى إلى أن العلوم الدينية بأجمعها الآن ميدان للاجتهاد والتأويل الواسع من جديد . وأول خطوة في أحياء العلوم الدينية هي أن نعمل في هذا الميدان بكل ما أوتينا من قوة . وعلماء الدين الذين سنعتمد عليهم أول الأمر في مؤسساتنا سيكونون في الغالب الأعم غير عصريين كل العصرية في تفكيرهم ، بمعنى أن معظمهم سيكونون ممن لم ينالوا أساسًا مبدئيًا في علوم النظر الحديثة ولم يتصلوا اتصالاً فكريًا بأمواج الآراء الكثيرة المعاصرة التي يصادم بعضها الدين وبعضها يباريه ويجاريه . فالاجتهاد الذي سيبدًا بهم لن يكون كاملاً كل الكمال . وعسى أن يكون أكثره من باب الشرح والبسط والتحقيق كالذي نشاهده الآن من اجتهاد بعض المجتهدين أمثال الذين تولوا تحقيقات بعض التفاسير القديمة . ولكيما يتيسر لنا برنامج متكامل متماسك بالمعنى الجامعي ، فإنه لا بد من أن يتجاوز الاجتهاد هذه المرحلة إلى مرحلة أكثر تعمقاً وأصالة . وذلك لن يكون قبل أن يتتلمذ على هؤلاء الزملاء العلماء الذين نبدأ بهم عدد من الشبان الخريجين . وهؤلاء الخريجون بحكم ما تدربوا عليه من أساليب التحصيل وبحكم ما تهيأ لديهم من

أسس الفهم للمعلومات الدقيقة بوجه عام ، وبحكم ما اتصلت به نفوسهم من علوم العصر، سيقدرون على ألوان من الاجتهاد عسى أن تكون في باب العسير أو المستحيل على أكثر الزملاء العلماء الذين يبدأ بهم العمل . وبما أن هؤلاء الخريجون مسلمون من بيئة مسلمة وبما أن لسانهم عربي، فإن تحصيل أساس يبنون عليه استقراءاتهم في البحث لن يكون عصيًا عسيرًا. بل إنهم سيكونون أحسن حالاً مما لو بدأوا في مرحلة مبكرة بحفظ المتون والشروح على طريقة المعاهد الدينية أو بحفظ الملخصات على طريقة بعض المؤسسات الشرقية مما أشرنا إليه آنفاً .

وعسى أن يكون أكثر الخريجين الملتحقين بباب البحث في هذه المؤسسة من خريجي الآداب والحقوق . ولكن لا بأس - بل يستحسن أن يلتحق غير هؤلاء من سائر أقسام الجامعة بعد التخريج ، إذ لن يخلو الطبيب من أن يجد طريقة في باب العلوم الدينية يجعلها مجال بحثه ، من ذلك سائر مسائل الحيض والحضانة والأقراء وأبواب عدة مما يتعلق بالطهارة وكثير مما روته الأحاديث في أبواب العلاج وهذه أمور أسوقها ههنا لمجرد التمثيل إذ عسى يرى طبيب باحث أن غيرها أهم وأجدى وأجدر أن يحصل فيه على نتائج . وقل مثل ذلك في خريج العمارة فقد يرى لزامًا عليه أن يتبحر شيئًا في علوم الدين التي كانت ذات أثر بالغ في وسم أصناف من العمارة الإسلامية بما اتصفت . وكذلك خريج التأريخ ، عسى أن يجد عليه لزاماً أن ينظر في أبواب بأعيانها من الدين حتى تتبين عنده بعض الغوامض في اقتصاديات الخلافة الراشدة أو الأموية أو في اجتماعياتها وهلم جرا .

ومثل هذه الأبحاث يحصل القائمون بعدها على اعترافات رسمية من المؤسسة بمنزلة الإجازات العالية. وعلك ههنا تتساءل في الذي يحدو طبيبًا أو معماريًا أو خريجًا في التأريخ أو في اللغة أو في الاقتصاد على أن يخلو للبحث في مسألة تتعلق بالدين تحت إرشاد الزملاء على النحو الذي نراه في الأكاديميات وأقسام البحث العالي ؟ والجواب عن هذا يسير . وهو التشجيع - أولاً واجب الجامعة أن تشجع البحث، فسيكون جزءًا من عمل المؤسسة أن تجعل جانبًا من ميزانيتها مخصصاً لقبول طلبة البحث وإعدادهم . ثانياً من واجب الدولة أن تعمل على إحياء علوم الدين بتشجيع طلابه الباحثين فيه ثم إنها من ناحية الإدارة فقط ستحتاج إلى أبحاث مستفيضة في أبواب شتى من أبواب الدين . خذ مثلاً ظاهرة الخفاض الفرعوني. هذه تحتاج الدولة فيها إلى أن تسترشد بآراء أطباء يتوفرون أيضاً على بحث الناحية الدينية كما تحتاج فيها أيضاً إلى آراء اجتماعيين وإداريين ليفعلوا نحوًا من ذلك . وخذ أيضاً ناحية التوسع في المشاريع الزراعية وعلاقة ذلك بالمواريث والأوقاف . لا بل خذ ناحية القوانين الكثيرة في أبوابها الكثيرة ودوائر اختصاصها الكثيرة . أليست الدولة محتاجة فيه كله إلى البحث المستفيض. أليس ذلك بأجدى عليها من أن تطلب من قضاتها ومفتيها أن يتجشموا لها الإفتاء في الأمر بعد الأمر فتحمل الواحد بذلك منهم عبئاً ينبغي أن يتحمله أعداد من العلماء في أوقات متتابعة ثم هو بعد ذلك يجد نفسه مضطرًا لأن يقلد وقد مضت فترة التقليد ؟، أضرب مثلاً في هذا الباب ما يحدث في بعض البلاد الإسلامية التي اتخذ موسم الحج فيها طابعاً تجاريًا من نوعٍ وخيم ، خارجة كل الخروج عن معنى الاستطاعة بمفهومها العصري ومع ذلك

لا يقدر عالم مقلد أن يفتي بأنها خارجة عن حدود الاستطاعة التي حدها الفقهاء القدماء كل الخروج . يسافر منها في كل عام آلاف من الخلق رجالاً ونساء نحو الحرم المقدس وأغلبهم لا يملكون من أداة السفر غير أجرة العربات المزدحمات التي تحملهم وتحمل معهم ضروب البضائع والأمتعة. وما هو إلا أن يجدوا أنفسهم بعد مراحل من مغادرتهم لبلادهم في ظروف قاسية كل القسوة . وقد نبئت أن كثيرًا ممن يتكبدون سفر الحج في مثل هذه الظروف منهم من يستسلم للتسول وقد كان من قبل لا يحلم بأن يزل إليه ، ومنهم من تؤول حاله النفسية والخلقية إلى شر من ذلك ومنهم من يعجز عن الاستمرار فيصير عيناً على البلاد التي يجتاز بها ، أليس من واجب الدول الإسلامية في مثل هذه الأحوال أن ترسل مختصين يدرسون ظروف هذه الأسفار، ويعرضونها على ضوء الدين ، ثم لها هي من بعد أن يجتهد علماؤها في إفتاء الناس بما يناسب عصرهم وظروفهم وأن يعززوها بالحجج التي تمكنها من إصدار القوانين الصالحة في هذا المضمار ؟ هذا ، والسببان اللذان قدمناهما لتقوية حجتنا في أن لا تكون علوم الدين أول إدخالها في النظام الجامعي مادة كسائر مواد الأقسام ، كلاهما فنيان ، أعني متعلقان في أصل جوهرهما بنظام التدريس والبحث العلمي . ونريد أن نضيف سببًا ثالثاً ذا لون اجتماعي . وهو أن سائر المواد التي تدرس في الأقسام الجامعية متساوية في العرف الجامعي، لا فضل لإحداها على الأخرى. وجلي أن علوم الدين وعلوم العربية في البلاد الناطقة بالعربية ينبغي أن توضع وضعاً أرفع لتدل برفعتها على أنها عصب الأمة وكيانها ومسكتها.

وسنتحدث عن أمر اللغة في بابٍ نلحقه بهذا البحث من بعد إن شاء الله. ونتحدث الآن عن مرادنا بإعطاء علوم الدين ما هو حقها من الرفعة.

إن الجامعيين قاطبة كما قدمنا يعدون الدين بابًا أثريًا تختص به المعاهد وأكثرهم يجهله. فأول شئ يصنعه خلق مؤسسة لزمالة من العلماء المتبحرين في مسائل الدين هو أن يدخل شئون الدين في الجامعة وهذا رأيٍ سبق أن بسطناه فيما مضى. ثم إن جعل هذه المؤسسة فوق الأقسام ومختصة بالخريجين يجعلها في وضع أسمى ويجعلها كأنما هي ملتقى لسائر الفنون والعلوم ولها ضلع ويد في سائر الفنون والعلوم . ثالثاً جعلها مؤسسة فوق الأقسام من طراز الأكاديمية يفتح أمامها من أبواب الاستفادة بأموال الجامعة وأموال الدولة مجالاً أوسع من غيرها من الأقسام بحيث تكون هي في الواقع المشرفة والرئيسة من الجهة المعنوية الفكرية . ثم إن انتماء علية أرباب الفكر في المجتمع المسلم إليها ولا يخلو أحدهم من أن يكون له سبب يربطه بدراسة الدين سيُحيطها بهالة من القدسية الروحية الحقة التي لا تستفاد من مجرد التسمية والمظهر كما هو الآن الشأن في أكثر المعاهد الدينية.

***

نظرات في المجتمع الإسلامي

قلت آنفاً إنه قد قامت حركتان إحداهما عمرانية والأخرى دينية بغرض المحافظة على التوازن الإسلامي القديم .

وقد كان للحركة العمرانية رواد كثير ولكن أقواهم وأوضحهم أثرًا محمد علي باشا . ولم يكن محمد علي باشا أول استيلائه على مصر يرمي إلى أكثر من أن ينشئ لنفسه ملكاً ثابتاً واطدًا يرثه أبناؤه من بعده . وقد رأى أن ملكه سيكون أوطد وأثبت متى قام على دعامة أقوى من المال والجند . فالتفت حوله فآنس أن النظم الأفرنجية أجدر لأن تتيح له ما يأمله من ذلك .

على أنه وهو يعمل على تقوية ملكه من الناحيتين الحربية والمالية لم يغفل أن يسترضي العلماء ويكتسب ودهم وولاءهم بأقوى ما كان يقدر عليه . ولقد كان يخيل إليه أنه سيقدر على تزويد الجيش المصري بالآلات الأوربية الحديثة والتدريب الأوربي الحديث، كما أنه سيقدر على زيادة الإنتاج في مصر من طريق الخبراء الأوربيين، ثم بعد هذا كله يحتفظ بالتوازن الاجتماعي الإسلامي من طريق العلماء.

ولقد وفق محمد علي باشا كل التوفيق في إيجاد جيش مصري جديد قوي ودولة مثرية ناهضة. غير أنه غاب عنه أمر واحد ، وهو أن التجديد الذي أدخله كان من طبيعة شأنه أن يحدث اختلالاً في التوازن الاجتماعي ، إذ كان معناه أن تتفتح أعين الرعية من طريق أفرادها الذين يدربون تدريبًا جديدًا ، إلى ألوان المقدرة المادية التي

تمكن استفادتها من أوربا . وكان هذا وحده كافيًا لأن يجعل هؤلاء يتساءلون إن كان أسلوب الرضا الوادع والتسليم الرتيب الذي ورثوه عن آبائهم هو الأسلوب الصحيح . ولا يخفى ما يحدثه مثل هذا التساؤل من القلق النفسي والاضطراب . كما لا يخفى أن مثل هذا الاضطراب ربما سما صعدًا حتى يتناول الشك في منزلة السلطان نفسه - وقد حدث ذلك بالفعل في أواخر القرن التاسع عشر، حين نهض عرابي باشا يطالب بإصلاح دستوري ، ويستحل لنفسه الخروج على الوالي بحجة مصالح الأمة المصرية .

وكما حاول محمد علي باشا تجديد كيان مملكته من طريق الاقتباس العمراني من أوروبا، حاول مصطفى كمال أتاتورك أيضاً - وكان الزمان قد أفاد الناس دروسًا عدة فحواها أنه لا يمكن إيجاد إصلاح عمراني على نسق أوربي إن لم يوجد معه إعداد للمجتمع واستعداد للتغير والتجدد الذي يلائم مثل هذا الاتجاه العمراني. ذلك بأن الحاكم المسلم القديم كان يجبي الضريبة ويسيطر بالسيف والناس على حالهم في أعمالهم لا يحسون من جانبه تدخلاً مباشرًا في شئونهم بل لعلهم كانوا في قرارة أنفسهم يحتقرونه لأنه من أهل النار من أجل ظلمه - وهذا هو قد كان سر التوازن . أما الحاكم المجدد ، الذي يرمي إلى الإصلاح العمراني ، لم يكن يجد مندوحة من التدخل في حياة الناس، وإخراجهم من أجواء الرتابة التي درجوا عليها وما يصحبها من الرضا بقضاء الله والتسليم إليه.

وبدهي أن الناس لم يكونوا ليقبلوا مثل هذا التدخل ، الذي كان يشعرهم بأن حصنهم الأخير من الجور، قد امتدت إليه أيدي السلطان .

ولم يكن إزاء الحاكم الذي كان لا يجد بدًا من التدخل بغرض إنشاء ملك شديد راسخ ، إلا أن يفرض أسلوبه على الناس فرضاً، ويسفه لهم أحلامهم تسفيهاً . وهذا ما فعله مصطفى كمال أتاتورك .

ونسي مصطفى كمال أنه إنما صار بطلاً في نظر الأمة التركية لأنه انتصر على اليونان - لأنه فعل في دار الحرب من مفاخر الجهاد ما لم يقدر عليه سلاطين آل عثمان ، فأبطل دار الحرب بالكلية عندما أعلن أنه سيُقبل على الإصلاح الداخلي ويلغي الخلافة . ومن ههنا أخطأ خطأ لم يخطئه محمد علي باشا . غير أنه في نفس الوقت تنبه لأمرٍ لم يتنبه إليه محمد علي ، وهو أن الناس سيقلقون على أية حال ، متى تداخلتهم النظم الأوربية ، فمن الخير أن يقهروا قهرًا عليها بحجة أن روح العصر يتطلب تغيير نوع الحياة التي كانوا يعيشونها . وقد وجد مصطفى كمال معارضة شديدة من العلماء ، فما كان منه إلا أن ثار في أوجه العلماء ، وازدراهم وتوعدهم . وقد برهن مصطفى كمال أنه من طريق السيف وحده يقدر أن يحمل كثيرًا من الرعية على ما كان يعده آباؤهم إلحادًا وكفرًا . غير أن تركيا الحديثة في جملتها برهان ساطع على أن السيف مهما ينجح فلن يبلغ إلا نجاحاً نسبيًا ضئيلاً .

وقد اتعظ المصلحون أي اتعاظ بتجربة مصطفى كمال التي حاولت حمل الإلحاد بالسيف على شعب مسلم يجتاز فترة القلق . فرأوا أن يجعلوا مع فرض العمران من طريق السلطة على رقاب الناس ، دعوة روحية براقة ، مبنية في أساسها على نظرية دار الحرب الإسلامية ، ولكنها في نفس الوقت ، مراد بها أن تستبدل الولاء الإسلامي بولاء عصري جديد . فنشأت من جراء هذا نظرية البيت العربي والقومية العربية وما إليها .

ولا شك أن الثورة المصرية ستصيب قدرًا من النجاح أعظم بكثير مما أصابه مصطفى كمال أتاتورك . ولكن سلطان الدين والتقاليد الإسلامية ، وهو عميق الجذور في مصر، سيجد سبيله بالتدريج إلى مصاف السلطان ، وسيعلو بالتدريج على الدعوة القومية العربية ، وسيجد المصلحون أنفسهم أمام الفراغ الروحي الذي إنما قاموا بما قاموا به كيما يتخلصوا منه ويحلوا أسلوبًا عصريًا في الحياة مكانه .

ومما يمدح به الرئيس جمال عبدالناصر في هذا الصدد أن هذه الحقيقة غير غائبة عن نظره كل الغياب . وآية ذلك شعوره الشديد الآن بالحاجة إلى إذكاء الروح الإسلامي من أجل مقاومة الشيوعية .

كما أن موقفه الأخير من البعثيين السوريين يوضح أنه في الحِق غير مقتنع بصواب نظرياتهم وأنها قادرة على أن تحدث انقلابًا اجتماعيًا عميقاً - بل لعله هو أكثر إيماناً بالقومية المصرية الأصيلة، وإن كان إلى الآن لم يصرح بذلك، كما أنه قد يكون أكثر إيماناً بسلطان الأداة الدينية التقليدية ، وهي هيئة العلماء ، على جمهور الشعب المصري .

وأنت ترى من هذا أن الرئيس جمال عبدالناصر ، عسى أن يكون قد أخذ يتراجع ، تحت ضغط الحوادث إلى سياسة تشبه سياسة محمد علي باشا ، سياسة مصرية عمرانية تحتفظ بولاء العلماء ، وتعمل على خلق جيش قوي ودولة قوية .

ولا ريب أن هذا التراجع على ما فيه من الاستسلام لقوة الواقع يحل في طياته مشكلة كالمشكلة التي كانت تحملها حركة محمد علي - وذلك أن المجتمع المصري الإسلامي في جملته، سيظل تقلقه مشكلة التوفيق بين أساليب الحياة العصرية ذات الاندفاع وراء السلطان

والانصياع لأوامره ونواهيه التي يراد بها البناء العمراني ، وبين أسلوب الحياة الإسلامي المبني على الشك في السلطان والثقة بالله والرضا بقضائه . ولا ريب أن قوة السلطان الآن عظيمة جدًا - ومن شأنها بدون شك أن تزعزع ما ورثته النفوس من الاطمئنان إلى سلطان الله والرضا بقضائه . ولا يخفى ما في هذا من الخطر على القيم والأخلاق . وإذن فكيف المخرج ؟ والذي قيل عن مصر يمكن كله أن يقال عن السودان - مع مبالغة في ذلك . لأن السودان كان ولا زال متأخرًا جدًا إذا قيس إلى مصر من كل النواحي - كان بلدًا في معظمه رعويًا إذ كانت مصر زراعية، وهو الآن آخذ بأسباب الزراعة ، إذ مصر آخذة بشئ من أسباب التصنيع، ولكن ثم فرقاً عظيمًا بين مصر والسودان وهو أن السودان ألمت به حركة ثورية من نوعٍ لم تشهده مصر أو شهدت مصر جانبًا منه ولم يتغلغل إلى أعمالها السطانية كل التغلغل - ألا وذلك هو الثورة المهدية . وقد قدمنا لك في أول حديثنا أن العالم الإسلامي قد شهد حركتين إحداهما عمرانية والأخرى دينية ، وقد ضربنا لك أمثلة من الحركة العمرانية ما قام به محمد علي باشا وكمال أتاتورك وجمال عبدالناصر وعسى أن تضيف إلى هؤلاء أبو رقيبة وأيوب خان وسكارنو وعبد الكريم قاسم مع فوارق عظيمة بين مشاربهم ومذاهبهم وطرائق عملهم .

والآن سنأخذ في نعت الحركة الثانية، وهي الحركة الدينية وأوضح مثل لها في أوائل القرن الماضي حركة الوهابيين والسنوسيين ثم حركة المهدي في السودان وحركة عثمان دان فوديو في غرب السودان ونجيريا وحركة الإخوان المسلمين بمصر .

ومن غرائب أسباب الاتفاق التأريخي أن الحركة الوهابية قد اضطرت في عنفوانها إلى أن تصطدم اصطدامًا عنيفاً مع حركة محمد علي باشا. وحروب إبرهيم باشا في هذا المجال معروفة. وإنما أزعم أن هذا من غرائب الاتفاق ، لأن حركة الإخوان المسلمين بمصر، قد اضطرت هي بدورها إلى أن تصطدم اصطدامًا عنيفاً مع حركة الجيش التي كان يتزعمها جمال عبدالناصر وليس خارجًا من هذا الباب ما وقع بين الخديوي والمهدي من الاصطدام الذي أدى آخر الأمر إلى استعانة الخديوي بالقوى الأجنبية راضيًا أو كارهاً ليديل من دولة الخليفة عبدالله .

والحق أن الحركاتِ الدينية جميعها من لدن الوهابيين إلى الإخوان المسلمين ما اضطرها إلى مصادمة الحاكم إلا أنها كانت تطلب السلطان . وكانت كلها تنظر إلى ماض سعيد بعيد تروم إعادته على الكون الإسلامي مرة أخرى ، لتضمن له تماسكه وقوته. وقد اختار الوهابيون بخاصة أن يرجعوا إلى أشد مذاهب الظاهر تطرفاً ، وبدا لهم أن سر تأخر المجتمع الإسلامي كما كانوا يرونه، إنما هو ما قد هدى إليه المسلمون من إحلال التصوف في تطوراته الأخيرة محل السنة، ومن تقديس رجال الصوفية الأحياء والأموات تقديساً يقارب بهم منازل الآلهة ، ويعيد إلى صفاء الدين ألواناً من كدر الوثنية التي حاربها الإسلام أول ظهوره . ولقد كان الوهابيون يحفزهم إلى الجهاد والإصلاح ما كانوا يشعرون به من قلق المجتمع الإسلامي في جملته . ولكنهم كانوا بعيدين جدًا عن مسرح حوادث العالم الحديث ، بحيث لم يكونوا يلمون أدنى إلمام بما طرأ على الكون من مستحدثات جديدة في فنون القتال لم يكن لهم بها من عهد .

وكان محمد علي باشا في نشوة الظفر ببعض ما ناله من تفوق بين سائر الولاة الأتراك ، وبالذي يسر له من الاستيلاء الكامل على شئون مصر ، والأخذ بأسباب العمران الأوربي الذي كان يأمل لنفسه منه المساواة عما قليل بملوك أوروبا وساداتها، غير فاطن لجوهر الثورة الديني الذي كانت تشتمل على مركز الوهابيين . بل لأنه في واقع الأمر قد كان من الناحية الدينية مقلدًا محافظاً، مادي النظرة ، ليستعد تمام الاستعداد ليكل أمر الدين كله لعلماء الأزهر متى تعهدوا هم بأن يضمنوا له رضا العامة عن عدله ، فإنه لم يكن يستطيع أن يدرك ضرورة ثورة دينية ، وعسى أن كان يخيل له أن الدين ليس بأمر ذي بال إذا قيس إلى جانب العمران والسطوة الحربية. ومهما يكن من شئ فإنه لم ينظر إلى حركة الوهابيين بأدنى عطف ، وإنما عدهم أعرابًا مارقين . وما أحسبه كان يتردد عن محاولة سحقهم ولو أعلمه علماؤه أن مذهبهم سُنِّي خالص صحيح صريح ، فكيف وقد أعلموه أنهم أهل افتيات على مذاهب السلف ؛ مع تعدٍ على الأولياء ، والصوفية إلى غير ذلك مما هو خروج عن مألوف الدين . واجه الكيان السلفي الوهابي الذي صنعه العاهل ابن سعود رحمه الله صنعاً بعد جهاد طويل بكل ما تنطوي عليه الحياة العصرية وثراؤها المادي من مناقضة صريحة لمذاهب السلف ونصوصهم وفي هذا أشد الخطر ولا ريب أن المجتمع الوهابي الأصيل يواجه الآن من القلق الديني والأمل في الخلاص ما يواجه سائر المجتمع الإسلامي وعلى هذا فلم يكن المذهب الوهابي بحماسه الشديد ورغبته في الرجعة إلى الماضي حلاً مؤقتاً . وقد أتيح للمذهب الوهابي أن ينهض مرة أخرى بعد زمان محمد علي ،

على يدي العاهل العظيم عبد العزيز بن سعود رحمه الله . ولكنه بعد هذه النهضة الثانية اصطدم اصطداماً عنيفاً مع خصم أشد مراساً وأقوى بأساً من محمد علي باشا وإن كان غير خارج في طبيعته عن روح محمد علي باشا هذا الخصم هو مشاريع الزيت . وهذا الخصم على أنه لابس ثوب الصديق لهو أفعل فتكاً وأضرى ضراوة .

هذا وقد حاول ميرزا غلام أحمد في الهند المسلمة ومحمد أحمد المهدي في السودان حلاً دينيًا من نوعٍ آخر وهو الإعراض بالكلية عن أقوال الفقهاء والعلماء ومن شاكلهم ومحاولة اختراق الحجب من طريق الاتصال المباشر بمنابع الشريعة، بغرض تجديدها وإحيائها وإزالة سائر أنواع الغشاوات عنها حتى يتم الإصلاح أو تتهيأ سبيله . وهذا الحل الديني كما ترى مستمد من جانب الباطن التصوفي ، بخلاف حل الوهابيين الذي كان مستمدًا من جانب الظاهر الشرعي وقد زعم ميرزا غلام أحمد لنفسه أنه نبي بعثه الله لتجديد النبوة المحمدية . وحاول تحت هذه الدعوة أن يدخل ألوانًا من التجديد في الإسلام حتى يصلح لمسايرة العصر . وقد فطن إلى ضرورة الإعراض عن طلب السلطان يتوفر على النشاط الديني البحت . وقد حاول أن يشرب مذهبه بعض الأفكار الغربية . فأنكر مثلاً وجوب قتل المرتد . ولكن سرعان ما تعرض مذهبه لهجمات عنيفة من جمهور العلماء المسلمين . فاضطر أتباعه بعد موته أن ينقسموا فريقين - منهم فريق خرج من الإسلام بالكلية وادعى لنفسه مذهبًا جديدًا وهؤلاء أقلية. والفريق الأكبر اضطر إلى أن يتراجع إلى حظيرة المعروف من مذاهب السنة حتى لا يتهم بالبدعة . وتركز أصحابه في تراجعهم هذا على أن يبنوا ثروتهم المادية حتى

يكون لهم نفوذ واسع . وقد وجدوا شيئاً من نفوذ حين استقلت باكستان وأتيحت لهم فيها بعض المناصب السياسية ، إلا أن مجهودهم في جملته لم يزد على أنه أضاف فرقة جديدة إلى سائر الفرق المبتدعة الإسلامية التي يربو عددها على الستين .

والسبب الرئيسي عندي في إخفاق مذهب الأحمدية هو أنه تطرف إلى أبعد حدود التطرف، إذ في دعوى صاحبه للنبوة ما يناقض أمرًا هامًا لا يستطيع مسلم أن يخرج عنه ، وهو أن محمدًا هو آخر النبيين وخاتمهم ، وللمصلح الإسلامي أن يجتهد ما شاء له الاجتهاد ، ولكن ليس له بأية حال أن يطول بنفسه إلى أن يقعد في مقعد النبوة مع محمد صلى الله عليه وسلم .

ولعل دعوة مرزا غلام أحمد كانت تكون ناجحة لو خلت من هذا العنصر الباطني المتطرف. لأنها في جملتها أقرب إلى الاتجاه الذي اتجهه الأستاذ الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا ، من محاولة إدخال روح من التسامح الديني في الحياة الإسلامية، مع اجتهاد في التأويل يراد منه توسيع آفاق المسلمين الفكرية والأخذ بيدهم شيئاً فشيئاً حتى يقدروا آخر الأمر أن يوائموا بين حياتهم العصرية ومعتقداتهم .

وتشبه دعوة محمد أحمد المهدي بالسودان حركة ميرزا غلام أحمد في أمرٍ واحدٍ فقط وهو الباطنية الصوفية. ولكنها بعد ذلك تختلف عنها كل الاختلاف إذ هي سلفية تنظر إلى إصلاح الدين من طريق الجهاد ، وفي هذا تشبه الدعوة الوهابية كل الشبه . وقد كانت بيئة السودان تتطلب لونًا باطنيًا ، لأن مشايخ الصوفية كانوا أغلب على السودان وعقيدة الناس كانت ولم تزل فيهم راسخة . ولعل سائر أرجاء

إفريقية جنوب الصحراء الكبرى لم يصلها الدين الإسلامي إلا من طريق رجال الصوفية . وتاريخ تاج الدين البهاري في نشر العلوم والطرق الدينية في بلاد السودان معروف . وتأريخ التجانية والقادرية في بلاد سنغال وسكتو أيضًا معروف .وحركة عثمان دان فوديا في نيجريا قوية الشبه بحركة المهدي ، وما أحسب ذلك إلا من تشابه البيئة.

ويؤخذ على حركة المهدية ما أخذناه على حركة الوهابية من أنها كانت على قوتها حلاً مؤقتاً - وقد اصطدمت حركة المهدية بالمدنية العصرية اصطدامين عنيفين، شبيهين بالاصطدامين الذين صليت بنارهما حركة الوهابيين: أولهما حربها مع الخديوي والإنجليز. وقد استبسل رجال المهدية مثل استبسال الوهابيين بل أشد ، إذ وصفهم ونستون شارشل بأنهم أقدموا بقلوب لا تعرف الوجل على اقتحام جدار من نيران المكسيم . فكانوا بذلك أبسل وأكبر جمع من الشهداء في المعركة الأزلية بين الجديد والقديم. هذا وقد اصطدمت الحركة المهدية اصطدامًا آخر بالمدنية الحديثة شبيهاً بالاصطدام الثاني الذي اصطدمته الحركة الوهابية ألا وهو اصطدامها مع التقدم العمراني الحديث الذي اختاره السودان منذ قيام كلية غوردون ومشاريع القطن . وقد بليت من مادية هذا التقدم بمثل ما بلى به الوهابيون من الزيت أو أشد.

وهنا لابد من التنبه على ناحية قوية من نواحي الشبه بين الحركة الأحمدية الهندية والحركة المهدية السودانية وهي أن كليهما قد سايرتا النشاط السياسي الذي سبق وتلا الاستعمار البريطاني في الهند والسودان . وقد أدتهما هذه المسايرة كليهما إلى أن ينصهر جوهرهما الديني في ألوان من التنظيم السياسي العصري .

وقد كان الأحمدية حتى قيام أيوب خان يقومون بـدور واضـح ملموس في ميدان السياسة الباكستاني. وحتى قيام حركة الجـيش فـي نوفمبر من عام ١٩٥٨ كان دور الحركة المهدية واضحاً ملموسًا .

وحركة عثمان بن دان فوديو أحرزت من النجاح مثل ما أحرزته حركة المهدي عام ١٨٨٥ – وأتيح لها بعد ذلك أن تستمر زمانـاً وأن تفرض سلطانها على سائر بلاد التكرور إلى الورين وأدامـاوا . ولـم تصدمها موجة الاستعمال البريطاني صدمًا عنيفاً في أوائل هذا القرن . إذ اكتفى الإنجليز بعقد معاهدة مع الأمراء وسكان سكتو ، وتركوا لهم في الظاهر القيام بشئون الإدارة كلها. قد استمر هذا الوضع في ما بعد الحرب العظمى . ثم أخذ القرن العشرين.

هذا وآخر الحركات الدينية عهدًا وأقواها أثرًا وأعظمها خطـرًا حركة الإخوان المسلمين . وهذه حركة معقدة ، تستمد كيانها من أمرين هامين : أحدهما تقدمي الظاهر منطقي يحاول أن يبرر الشـرع فـي ضوء ما وصل إليه العقل. وهذا هو المنهج الذي افترعه جمال الدين الأفغاني ثم سار به من بعده الإمام محمد عبده وتلاميذه . وقـد كـان الإمام محمد عبده شديد الإعجاب بما أحرزته أوروبـا فـي ميـادين الحضارة بأسرها. وكان مع ذلك شديد الولاء لدينه ووطنـه وقومـه. وكان يخيل إليه أن التوفيق بين ولائه وإعجابه ممكن ، من طريـق ، النظرة من جديد في أصول الدين وتعاليمه، والاجتهاد من جديـد فـي سائر أبواب الشريعة كما كان يجتهد الأولون . وكان محمـد عبـده ، أيضًا قوي الأيمان بضرورة التسامح الديني . وما كان إعجابه بحضارة أوروبا إلا طرفاً من إيمانه العميق بالتسامح . وقد عُرف عنه أنه سافر

إلى أوروبا وأقام بباريس الزمان الطويل ولم يحج إلى بيت الله الحرام .
وكان هذا في نظر المحافظين من رجال الدين مسلكاً شاذاً ، حتى إن أحدهم ، أحسبه يوسف النبهاني ، هجاه بقوله:

وكم زار باريسًا ولندرة وما يحج لبيتِ الله أو طيبة الغرا

ومن المؤسف حقاً أن جانب التسامح من نظرة محمد عبده الدينية، قد نُسي أو تُنوسي . لا بل هو نفسه مسئول إلى حد كبير عن ضياع هذا الجانب من جوانب تعاليمه، لأنه تركه ليفهم من خلال أبحاثه الإنسانية العريضة الفضفاضة ولم يدعُ إليه دعوة صريحة واضحة .
وقد اعتاد الناس ألا يأبهوا إلى أمر ما لم يدعُ إليه صاحبه ألح الدعاء .
ثم إن محمد عبده قد شغل نفسه دهرًا بجانب الاجتهاد والتأويل . واتبع في ذلك سبيلاً لم تخل من أخطاء - أهمها افتراض السلامة والصواب في أكثر مذاهب المعاملات الأوربية والسعي سعيًا حثيثاً إلى تأويل القرآن والحديث والفقه ليسايرها . ومثل هذا المنهج لا يخلو صاحبه ، مهما يؤت من حذق وبراعة ، من التدليس الفكري وإن لم يقصد هو إلى التدليس الفكري . ولا يخفى أن التدليس الفكري ، أياً كان، من شأنه أن يعدو على جانب الصدق والحرارة ويفتح مجالاً كبيرًا للنفاق.

وقد كان تلاميذ محمد عبده المباشرين مخلصين صادقين حقاً ، ولكن لم يخل جملة المتأثرين بهم من إيثار السفسطة الجدلية وحمل التأويل حملاً بعيدًا على نحوٍ لا ينفذ كل النفوذ إلى أعماق القلوب التي تلتمس الأسباب إلى الخلاص الروحي، وإقامة ما جعلت تتسرب إليه عوامل الانهيار من دعائم الإيمان . ولعل من خير ما يستشهد به في هذا الباب الفتوى المشهورة المنسوبة إلى محمد عبده من أنه أجاز

أنواع الربا الدائرة في معاملة البنوك الآن بحجة أنها ليست بأضعاف مضاعفة . فهذه الفتوى لا ينظر إليها أدنى من له إلمام بالتشريع الإسلامي إلا بأنها رخصة ليس إلا . وموضع الرخص في نظر المسلمين معروف ، إذ هم ، منصوحون أن يتحرجوا منها كل التحرج، فكيف يُطلب منهم أن يقبلوا بعضها على أنه فتوى قاطعة، إلا بتحليل عظيم يدخلهم في بحر النفاق .

ولك أن تقيس على هذا المثال أمثلة كثيرة أخرى من ضروب الاجتهاد المعاصر، ويدخل في هذا الباب سائر أصناف التفاسير التي ترمي إلى تأويل الآيات تأويلاً يساير نظرية داروين أو غيرها من نظريات الطبيعة ، كقول بعضهم في تأويل قوله تعالى: " أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقاً ففتقناهما " إن هذا هو بعينه نظرية جيمس جينز في أن الأرض كانت جزءًا من الشمس وانفصلت عنها في الدهرالبعيد . فكيف إذا أثبت البحث العلمي بطلان نظرية جيمس جينز ؟ وتفسير الشيخ طنطاوي جوهري في جملته مثال صالح لهذا النوع من السفسطة.

وما قامت حركة الإخوان المسلمين أول أمرها إلا للشعور المتغلغل في نفوس المثقفين من أن اجتهاد مدرسة محمد عبده لم يعد كافيًا - بل قد زال عنه جانب الحرارة كل الزوال . وقد بدا لهم هم أن يدخلوا فيه هذا الجانب ، وأن يستفيدوا في نفس الوقت مما كشفه لهم هذا المذهب العبدي من إمكانيات التأويل الواسعة والاجتهاد من جديد .

هذا ما كان من أمر الأصل الأول . والأصل الثاني ، رجعي سلفي، ينظر إلى أولوية الإسلام في الكتاب والسنة بوجه عام ، وفي

الاندفاع المتحمس العنيف الذي قام به أصحاب الحركة الوهابيـــة ومــا أشبهها من الحركات السلفية كحركة المهدي بالســودان . وقــد وجـد الإخوان أنفسهم مدفوعين دفعاً إلى النظر إلى هــذا الأصــل الســلفي بدافعين معاً: أن يكسبوا دعوتهم حرارة عاطفية مستمدة من اسم الكتاب والسنة وما يدور حولهما من تقديس عميق في نفوس المســلمين ، وأن يؤهلوها لتخوض في ميدان السياسة العملي ؛ إذ كانت طبيعة أوضــاع المجتمع الذي بدأوا يعملون فيه تحملهم حملاً على النظر في السياسة ، وكان محمد عبده وتلاميذه ومن على مذهبهم في الجملة كالمبتعدين من ميدان السياسة العملية أن يباشره مباشرة فعالة . نعم قد كان محمد عبده في بادئ أمره متعلقاً بالسياسة وقد نظر نظرًا شديدًا إلى مجهوداته فــي هذا الباب ، ولكن محمد عبده ابتعد عن السياسة آخر الأمر كمــا هــو معروف ، وعلق على الإنتاج الديني . هذا وما أبه الإخوان وهم يفعلون هذا أنهم .... جانب الاتساع الإنساني والتسامح الروحي الذي يستمد أصله من تعاليم محمد عبده . وما هو إلا قليل حتى صــارت حركــة الإخوان في جوهرها حركة ذات عاطفة سلفية وتكوين سياسي ، ومن حيث لا يشعر أصحابها ، صارت حركة متطرفــة تحتــرم الجانــب الحربي من التقدم العصري المادي ، وتحترم الجانب العاطفي النــزاع إلى ماضٍ من الإسلام قديم عسى أن يلتمس في أيام عمر بن الخطــاب ثم بعد ذلك تنصرف بالكلية عن كل ما يدعو إلى الرحابــة والاتســاع والمنطق البحت .

وقد أعانت ظروف السياسة المصرية على دفع الإخــوان إلــى جانب بعيد من التطرف العاطفي . وكلما زاد تطرفهم العــاطفي ، زاد

إلحاحهم على الرجعة إلى الكتاب والسنة، والمؤسف في مثل هذه الدعوة الراجعة إلى الأصول القديمة أنها بمجرد ما تصطدم ببعض التعاليم التي لا تلائم هذا العصر أو لا يلائمها هذا العصر، تغضي عنها إغضاءً تاماً، وتتجاهل وجودها . من ذلك مثلاً قضية تحرير المرأة . فنظرة الكتاب والسنة نحوها بينة واضحة في باب المعاملات، إذ المرأة دون الرجل، وللرجل أن يتزوج أربع نساء ، وعلى المرأة أن تحتجب إلا من المحارم، وشهادة المرأة الواحدة تحتاج إلى أن تعززها شهادة امرأة أخرى، وميراث المرأة أقل من ميراث الرجل ، ومن ترك بنات، فلا بد لهن من عصيب يشاركهن في الميراث ، وبالجملة ، فإن المعاملات الإسلامية كلها تجعل الرجال قوامين على النساء . وحركة التحرير العصرية تنظر نظرة مخالفة إذ هي تجيز للنساء منصب الوزارة والرياسة والمساواة الكاملة في الحقوق مع الرجل . ولا يمكن قبول هذه النظرة العصرية من دون خروج على أصل المعاملات في الإسلام ، أو تأويل جديد لها . والإخوان لم يدعوا الخروج عن الأصل ولا جاءوا بتأويل مقنع . وكل ما هناك أنهم أقبلوا على تقبل هذا الجانب من الدعوات العصرية لأنه عصري ليس إلا - ولا يخفى أن هناك جوانب كثيرة من حياة العصر تقبلها الإخوان من دون أن يتأولوها أو يحللوها وهي تناقض الأصل الذي يتمسكون به في الكتاب والسنة . وقصارى هذا كله أن حركتهم على عنفها العاطفي لا بد أن تئول إلى ما آلت إليه سائر الحركات السلفية قبلها من مواجهة التناقض والتنافر الروحي بين الموروث المعهود المتواضع عليه المأخوذ به من تعاليم الإسلام ومن قيم المجتمع الإسلامي، وهذه النظم العصرية على اختلاف أنواعها وقد أخفقت

حركة الإخوان في التسلط على مقاليد الحكم بمصر فاضطرها هذا إلـى أن تحاول محاولة جديدة فيها نظرة أبعد وأعمق من النظرة الأولى .

من ميدان السياسة إلى ميدان الاجتمـاع والأخـلاق . وهـم لا يزالون يجتازون هذه المرحلة من مراحل تطورهم . وإلى الآن لم يبدُ تطور ظاهر في فلسفتهم. غير أنهم عما قليل سيواجهون اصطدامًا من نوعٍ أخطر وأعنف من ذلك الذي صلوا به في نضالهم مع جمال عبد الناصر . وهو أنهم سيجدون أنفسهم بحكـم إقبـالهم علـى الميـدان الاجتماعي، غير مزودين بأكثر من حماس العاطفية المبني على نظرية الجهاد . وإذ لا عدو يجاهدونه ، فإن هذا الحماس سـيبوخ بالتـدريج، وينتهي أمرهم آخر شيء إلى أن يكونوا فرقة من الفـرق ، تتعصـب لمذهبها في الظاهر، وتعاني سائر مشاكل التناقض الاجتماعي والعاطفي التي يعانيها المجتمع الإسلامي .

ومن المخاطر التي تهدد الإخوان في طورهم الثاني هذا أيضًـا إمكان تسلل الدعاة الشيوعيين إلى صفوفهم. إذ من المألوف عند الشيوعيين أن يتسللوا في أكثر من معسكر واحدٍ بغرض إقلاق الحكام الذين يناوئونهم مع استبعاد نظرهم عن أن يشتبهوا فيهم أول الأمـر. ولا تسـتغرب أيهـا القارئ الكريم، إن جعلت ترى تطورًا في منظمات الإخوان يجعلها شـبيهة بالمنظمات الشيوعية . ففي كثير من الأحيان ستجد أن مصدر ذلـك هـو تسلل جماعة من الشيوعيين إليها بغرض استغلالها .

وكما أن الشيوعيين يتسللون في حركة الإخـوان المسـلمين بغـرض التعمية ودفع الشبهة، فإن بعض الإخوان يغازلون المذهب الشـيوعي ، بغرض التقوية لمنظماتهم من الناحية الحربية الدفاعيـة والهجوميـة ،

وبغرض التطلع إلى آخر النظريات الحديثة العصرية ، ثم بغرض حب البقاء الفلسفي: أعني بذلك أنهم من حرصهم العاطفي على الاحتفاظ بالإسلام، لا يمانعون كثيرًا في أن يحتفظوا باسمه فقط ، ثم بعد ذلك يطعمونه ما يتأتى لهم من آراء الشيوعيين مهما تكن هذه الآراء مباينة للإسلام ولجوهره . ولا يخفى أن هذه النظرة فيها غير قليل من الانتهازية الفاشية.

ولا يفوتني في هذا الموضع أن أنبه إلى كتاب الأستاذ خالد محمد خالد " من هنا نبدأ " - فهو تأليف مفكر يقف في مفترق الطريق بين الإخوانية والشيوعية، آية ذلك أنه سلفي جدًا في نظرته لا يجسر على الاجتهاد الحق والتأويل الحق عندما تواجهه المشاكل الدينية العويصة، بل يكتفي بأن يحاول منها مخرجاً فيه نوع من الذكاء الذي لا يقنع إيمان النفوس . مثل ذلك موقفه من عقوبة قطع اليد في السرقة - فهو يحاول الادعاء بأنها عقوبة معطلة بدليل أن سيدنا عمر بن الخطاب أبطلها زمان المجاعة . وهذا تدليس ظاهر . لأن عمل سيدنا عمر ، إن صح ، إنما اقتضته ضرورة عابرة ، ولا يعطل حكمًا محكمًا نطق به الكتاب نطقاً لا يقبل الجدل . وحقيقة الأمر إن خالد محمد خالد غير مقتنع بعقوبة السرقة وغير قادر على أن يعبر عن عدم اقتناعه هذا . وفي عدم الاقتناع نفسه دليل على انحرافٍ عن مألوف ما نحن عليه من الاعتقاد الإسلامي ، اللهم [إلا] أن يلتمس المرء لنفسه تبريرًا واضحاً ظاهرًا وتأويلاً يقبله المنطق والقلب معاً .

وكما ترى فإن خالدًا مع أنه سلفي، فإن سلفيته هذه شكلية فقط وليست عميقة بل لعلها ليست صادقة . وعطفه الظاهر على المركسية

ومذاهبها لو دققت فيه أيضًا تكشف لك منه أنه أيضًا غير عميق ، والحق أنه يستحيل على المرء أن يكون دينيًا سلفيًا ومركسيًا ماديًا في آن واحدٍ - لأن المركسية المادية في ذات نفسها دين جديد جاء به هذا القرن العشرين مجيئًا سافرًا ، ولا يقبل معه شريكاً وإن كان ذلك الشريك الإسلام .

وإلى ههنا يتضح عندك أيها القارئ الكريم أن جميع الحركات الدينية ، من الوهابية إلى الإخوان، قد أخفقت إخفاقاً تامًا في أن تنفذ إلى أعماق مشكلة المجتمع الإسلامي الروحية . كما أنها قد أخفقت أخفاقاً تامًا في الميدان الإسلامي السياسي، التي وجهت إليه جهودها أول الأمر، ولا زالت تعده مجال عملها الأكبر .

وقد وضحنا لك آنفاً أن الحركات العمرانية جميعها لم تنجح إلا في إيجاد حلول مؤقتة - وهي في جملتها أيضًا قد فشلت من إعطاء المجتمع الإسلامي المثل العليا الجديدة التي تهيئ له أن ينساب في يسر وإسماح إلى الأخذ بأسباب الحياة العصرية التي لن تكف عن غزوته من طريق التقدم المادي العالمي المحسوس .

وهنا نتساءل ؟ فكيف المخرج ؟ هل العالم الإسلامي في جملته عالم رجعي متأخر لابد من نفضه نفضًا تامًا من غبار ماضيه ودعوته إلى التحرر المحض من ربقة الدين حتى يقدر على الأخذ بأسباب الحضارة والعمران ، ويحقق لنفسه كينونة فعالة مثل كينونة أوروبا ونظائرها من بلدان الأرض ؟ هذا هو رأي الرفيق ستالين في كتابه الاشتراكية والمسألة الاستعمارية. وقد قال بهذا الرأي ليبرر لنفسه ولدولته استيلاءها الكامل على بلاد التركمان المسلمة من آسيا بحجة

أنها متأخرة ورجعية وأنه لابد من إنقاذها. وغير غائب عن القارئ الكريم أن هذه هي نفس الحجة التي كان يستعملها أساطين الاستعمار الأوروبي، كلما طالبته الشعوب المحكومة بالاستقلال .

ويرى آخرون أن العالم الإسلامي في جملته لا بأس به ، وإنما هو يعاني فقط مشاكل فترة الانتقال . وهي فترة مهما تبد عنيفة فليست في الواقع خطيرة كل الخطورة ، متى تنبه الناس لها . والذين ينظرون هذه النظرة يعتقدون أن العالم الإسلامي محتاج جدًا إلى أن يتطور في الجانب المادي، ولا يعني نفسه كثيرًا بالجانب الروحي، لأنه غني جدًا بالجانب الروحي . ومتى زادت الصناعات وكثرت ألوان الثقافة الغربية، فإن الناس سيتعلمون عادات جديدة ، وستصير لهم هذه العادات الجديدة بمنزلة القيم الاجتماعية الجديدة ، وسينسون بالتدريج القيم الرجعية القديمة . وسيكونون آخر الأمر متحضرين ، وستبقى معهم الحرارة العاطفية نحو الإسلام ، التي ستحول بينهم وين المذهب الشيوعي .

من المؤسف حقاً أن هذه النظرة هي الغالبة على السواد الأعظم من الناس ، الذين رضوا لأنفسهم بأن ينجرفوا وينساقوا ثم يكون بعد ذلك ما يكون . وغير غائب عن نظر القارئ الكريم أن نوع الاتجاه الذي يمكن أن يوصف وصفاً عابرًا بأنه رأسمالي هو الذي يكمن وراء هذه النظرة . وهو اتجاه عميق الإيمان بالنجاح المادي وبالآلات الحديثة وبنوعٍ من الاستسلام إلى سلطان هذه العوامل يمكن أن يطلق عليه اسم الدين . وأول ما يؤخذ على هذا الاتجاه أنه يميل إلى حل المشاكل الروحية والعاطفية بتركها إلى عامل الزمن ، ثقة منه أن تحسن مستوى المعيشة وما إلى ذلك سيطوح بأكثر هذه المشاكل . وجلي أن هذه

النظرة أبعد توغلاً في المادية المحضة من الشيوعية التي كما قدمنا لك عنها إنما هي مذهب ودين . ثم هذه النظرة الرأسمالي – بعد ذلك غير مقنعة لأنها فاقدة للحماسة وللروح. إذ لا يمكن أن يتصور وجود الحماس فيمن يريد أن يترك حل المشاكل إلى الزمن .

وقد أحس دعاة الرأسمالية في البلاد الأوربية كلهم ناحية فقدان الحماس والروح في رعايتهم. فعولوا على أن يعوضوا هذا النقص باستعمال اسم الدين، واسم الحرية والدمقراطية واسم الحضارة الغربية إلى غير ذلك من الألفاظ البراقة . ومع هذا كله فهم غير مستطيعين أن يجيبوا عن أسئلة هامة كالتفرقة العنصرية في أمريكا وجنوب افريقية ، تلك التفرقة التي تناقض الدين والدمقراطية معاً . ولا شك أن الحكومة الفدرالية للولايات المتحدة قد أخذت تخطو خطاً فعالة نحو تخفيف التفاوت العنصري ، ولا يدري بعد مقدار ما سيكتب لها من نجاح . ولكن ليست نظرية رأس المال هي التي حدتها على اتخاذ هذه الخطوات، وإنما بقية المثل العليا الاجتماعية التي خلفتها حركة ابراهام لنكولن من جانب، وضغط الشعور العالمي الذي فشا فشوّا واضحاً إزاء هذه المشكلة فيما بعد الحرب . ولكن اتحاد جنوب افريقيا لا زال مصرّا على هذه السياسة العنصرية ، والمعسكر الرأسمالي غير قادر على رده عن هذه السياسة الخاطئة ، لا بل يتعاون معه أشد التعاون .

وقد سقنا إليك هذه الأمثلة لنبين لك أن الاتجاه الرأسمالي مفلس كل الإفلاس . وحيث يبدو أنه ناجح وأنه ذو مثل روحية ، فمنشأ تلك المثل العليا التي لا تمت إلى رأس المال بأدنى صلة، بل التي تحارب رأس المال حربًا لا هوادة فيها، كالذي نشاهده في شمال أوروبا .

وعسير على أصحاب الاتجاه الرأسمالي عندنا في بلاد المسلمين أن يجعلوا أن في إمكانهم تقليد شمال أوروبا وانجلترا . ذلك بأن هذه الأقاليم تستند على تقاليد دينية وروحية مختلفة عما نستند إليه تمام الاختلاف - ثم هي الآن نفسها ضعيفة الأثر في الدنيا وغير خالية كل الخلو من اضطراب اجتماعي روحي ربما طوَّح بما يبدو عليه من سمات الاستقرار والرفاهية فجاءة ، وبأتم ما يكون التطويح .

ثم لا يفوتك أن تخدير الناس بوكلهم إلى عوامل الزمن ، وتمنيتهم أن الحضارة المادية ستأتيهم ، فيه مدعاة إلى الانحلال الخلقي والفساد الاجتماعي . إذ سيكون جلي هم القادة أن يصيبوا النجاح المادي بأي ثمن . وسيكون جل هم الأتباع أن يتملقوا هؤلاء القادة بشتى الوسائل . ومجتمع من هذا الصنف ستكون فيه للرشوة ولضغط العصابات المتآزرة ، وما إلى ذلك من ألوان الانهيار وارتكاس القيم، الكلمة الأولى . وسيسلم نفسه آخر الأمر لأي نوعٍ من الثورات يعده الخلاص سواء أكان خلاصًا حقيقياً أم وهميًا .

وإذن فكيف المخرج ومن أين سبيل النجاة ؟

يتبع

***

العلماء والسلطان

ربما نقدر أن نقول إن العالم الإسلامي ظل دهرًا طويلاً وهو لا يعرف سلطانًا غير السيف والمؤامرة والغدر والدسيسة . وطفق الناس في جملتهم قانعين بما قسم الله لهم من حظ الدنيا: أرباب الزرائع في زرائعهم ، وأرباب الصنائع في صنائعهم، والعلماء عند متونهم وشروحهم وحواشيهم ، والصوفية في زواياهم وأروقتهم، ثم بين جميع ذلك الدراويش والسائلون والزمنى من عرج وعميان ومقعدين والمشعوذون والحواة والمهرجون وهلم جرا .

كان السلطان جائرًا : فقد ذهب العدل مع علي ومعاوية . وحتى معاوية قد اعترف بأنه لا يقدر أن يحمل نفسه على سنيات عمر وأبي بكر، وإنما يقدر على المؤاكلة الحسنة والمشاربة الحسنة أو كما قال إذ خطب في الناس بالمدينة. ولم يذكر المؤرخون بعد هذين الصحابيين الجليلين حاكماً عادلاً غير عمر بن العزيز ويزيد بن الوليد والمهدي العباسي . وربما شاء بعضهم أن يلحق بهؤلاء السلطان صلاح الدين الأيوبي – ولكن في هذا نظر ، بالرغم من الجهاد العظيم والبلاء الباهر الذي بلاه ذلك السلطان في الدفاع عن حمى الإسلام إذ صد الصليبيين في حطين وغيرها . ولا أدل على جور السلطان من التحكم الذي كان يتحكمه الحجاج بن يوسف في الدماء ، ومن بعده يوسف بن عمر والقسريان خالد بن عبدالله وأخوه أسد . ثم جاء أبو مسلم فأنسى الناس جور الحجاج . وقد كان أبو مسلم يعمل بوصية إبراهيم الإمام التي جاء

فيها ؛ " وأيما غلام بلغ خمسة أشبار اتهمته فاقتله " وقد زعموا أن أبا مسلم دعا بسليمان بن كثير الخزاعي، وكان هذا من شيوخ الدعاة والشيعة ، فقال له اقرأ وصية الإمام، فقرأها حتى بلغ القطعة التي قدمناها آنفاً ، فقال أبو مسلم : " فأني قد اتهمتك " وأمر به فضربت عنقه . وقد قتل أبو مسلم الآلاف . وقد قتل السفاح الآلاف وجاء أبو جعفر فنهى الناس عن قولهم " اتق الله أيها الأمير " وقتل ما شاء الله له أن يقتل وضرب رجالاً صالحين منهم الإمام مالك إمام دار الهجرة . وجاء المهدي فجعل يقتل الناس على الزندقة. وقد كان القتل عليها أو الأمر غيرة على الدين ثم صار في آخر أمره ، بل في خلافة المهدي نفسها ، ذريعة يتذرع بها إلى الإيقاع بالخصوم . من ذلك ما رووا أن يعقوب بن داود صنعه ببشار إذ أغرى به المهدي فأمر بجلده حتى مات. وإنما كان بشار شاعرًا ذا بدوات ليس إلا.

وهذا الأسلوب القذر الذي استحله يعقوب ليوقع بشار، استحله خصوم يعقوب فأوقعوا به هو عند الخليفة، وذلك أنهم لفقوا تهمة ذكروا فيها إن ليعقوب ابناً زنديقاً حلال الدم . ولم يكن ليخلو شاب من المتصلين بالظرف والثقافة والثراء في ذلك الزمان من أن يتعاطى الزندقة ، كما هي حال الشباب القلق في كل زمان. وما هي إلا نزوة ثم تخبو . فأحضر ذلك الابن الزنديق ، وشهد عليه من شهد بما قال . ثم دعا الخليفة أباه يعقوب وأعطاه سيفاً وأمره أن يتقرب إلى الله بدمه. أليس الله تعالى يقول في كتابه العزيز : " لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم وكان يعقوب بن داود شيخًا كبيرًا . فلما

أمسك بالسيف تداعى وانهارت قواه فلم يقدر على أن يضرب ابنه . فما كان من الخليفة إلا أن أمر من ضرب عنق ابنه بمشهد منه ، ثم طرده من بعد من الوزارة ثم نكل به تنكيلاً.

ومما يدخل في باب التشفي والتذرع بالذرائع ما صنعه المهدي بصالح بن عبد القدوس، فقد استدعاه واستتابه فلما تاب قال له ألست القائل:

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يُوارى في ثرى رمسه

وجعل هذا البيت سبيلاً إلى قتله بحجة أنه شيخ ولا يمكن أن يتوب عما تعوده من الزندقة . وهذا من أغرب الاحتجاج وخارج عن باب الدين بمرة واحدة . وقد روت الأسانيد الصحيحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخ أسامة بن زيد توبيخاً شديدًا على أنه أعمل رأيه وقتل رجلاً حاول أن يتقي السيف بالشهادة ، مع أن أسامة كان له من الأسباب ما عسى أن يبرر صنيعه ، وقد ذكرها للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبل منه. وقصة المهدي هذه مع صالح بن عبدالقدوس أشبه شئ بقصة الذئب والحمل.

وكان الهادي بن المهدي طويلاً جسيمًا . وكان يقتل الزنادقة . ولعله كان يفعل بعض ذلك للتسلية . فالملك مفسدة وقد يخرج بالإنسان من الاعتدال إلى الانحراف. ومما روي عن الهادي أنه عاده مرة بعض العلية والوزراء . فبينما هم جلوس، قد أصابوا طعامًا أو نحوه ، إذ به يخرج رأس فتاتين جميلتين غاية الجمال، في طست، يقطر منهما الدم ، وذكر أنهما كانتا تتساحقان وكان هو يحبهما فلذلك قتلهما هذه القتلة انتقامًا منهما وغيرة على الأخلاق أو كما قال . فما كان من القوم إلا

أن ارتاعوا وهالهم ذلك كل هول . ولا يستبعد أن قد كان كثير من السراة والوجهاء على دين الخليفة الهادي في دمويته وانحرافه، والناس على دين ملوكهم ، فقد ذكروا أن ديك الجن الشاعر قتل جارية له وغلاماً اتهمهما بأنهما كانا يخونانه ثم نظم فيهما قصيدة يرثيهما ذكرها زكي مبارك في كتاب الموازنة يستحسنها وأنا أستفظعها . وقد انتقمت الجواري من الخليفة الهادي شر انتقام إذ اجتمعن عليه ذات ليلة فخنقنه بالمخدات . وقيل إن ذلك كان بإيعاز من أمه الخيزران . ولا يستبعد أن قد كان لهرون الرشيد ويحي البرمكي يد في تدبير هذه المؤامرة .

هذا ولما ولي هرون الرشيد كان يدبر أمره البرمكيون أول الأمر . ولم يكونوا برآء كل البراءة مما كان يتسم به ملوك ذلك الزمان من الترف والسرف فقد روي أن جعفر البرمكي كان يفتض بكرًا كل خميس ، غير أنهم كانوا على وجه الإجمال أهل علم وفضل وتحنن على الناس . وكان هرون سلطاناً جبارًا كسائر من سبقوه من السلاطين فما هو إلا قليل حتى حسدهم على منزلتهم وتنمر لهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وكان هرون الرشيد يسفك ما يشاء الله له من الدماء ثم يحاول تكفير ذلك بإطالة الصلة والغزو . ولا غرابة في كل هذا فالملك المطلق، كما قدمنا، لا زال في كل زمان وسيلة إلى الجنون المحترم المقدس – والذي يذكره المؤرخون من قصة العباسة ليس ببعيد عندي.

هذا وقد كان الأمين بن زبيدة مترفاً ضعيفاً منحلاً مع قدر عظيم من السذاجة . يدلك على ذلك ما ذكره الجاحظ من أنه خرج أيام تضعضع أمره إلى بعض دور ببغداد الشعبية، فدبت قملة على ثوبه، فتناولها أحد حاشيته، ففطن هو لحركة يده فسأله، فنبأه هذا أنها قملة،

فقال له الأمين : " أرنيها فقد والله سمعت بها " . وكان المأمون بن مراجل ، موصوفاً بالعلم ، لكنه كان مع ذلك مستبدًا ذا بدوات من الجور يصحبها غير قليل من مكر الهجناء . وقد سم الرضا بعنقود عنب . وأرسل على ابن سهل من تخطفوه بالسيوف . وأمر بعلي بن جبلة العكوك فاستل لسانه من حلقه لا لشئ إلا لأنه قال:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين بادي إلى حضره

فإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

وأمر بالأخيار من أهل السنة فامتحنوا شر محنة حتى يقولوا بخلق القرآن . وذكروا أن أحد أصحاب مجلسه، وأحسبه كان لا يقول بخلق القرآن ، سبق لسانه فقال له: يا أمير الكافرين . فما هو إلا أن تخطفته السيوف في الحال ..وهذا الارتكاس في الملق شبيه جدًا بما كان يحدث في مجلس الشيوخ الرومان على عهود الأباطرة المترفين. ومع هذا فإن المأمون كان ممن يُذكر بالحلم والمروءة وما شاكل ذلك فتأمل .

وكان المعتصم أميًا أو كالأمي وكان يعجبه تدبير الحرب فكان بذلك أسلم سيرة من سابقيه على أنه هو وابنه الواثق بعده كانا يعذبان الناس على أن يقولوا بخلق القرآن . وقد اعتمدا على الجنود الأتراك فأدخلا في نظام الدولة صنفاً جديدًا من الاستبداد الهمجي التتاري الذي لم يكن يمت إلى الإسلام بقليل أو كثير . وقد كان الأفشين قائد المعتصم سريعاً إلى خطف الأرواح . وكان ابن أبي دؤاد مستشار المعتصم الديني متعطشاً إلى البطش ، شديد الحقد عظيم النكاية بأعدائه ، وقد كان مع هذا كله عربيًا حرًا ذا مروءة وفضل . وكان ينافسه محمد بن

الزيات الوزير وكان رجلاً فاجرًا واصطنع تنورًا يعذب فيه الناس فإذا قالوا له ارحمنا أيها الوزير قال لهم : " الرحمة خور في الطبيعة " – أي ضعف في الطبيعة ، وهذا من مقالات المتفلسفة وأصحاب الكلام .

وجاء المتوكل بعد الواثق . وهو ممدوح البحتري ، الذي قال فيه :

الله مكن للخليفة جعفر ملكاً يحسنه الخليفة جعفر

وهو أيضًا مرثيه الذي نظم فيه القصيدة الرائعة :

محل على القاطول أخلق داثره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

وكان ضعيفاً منحلاً فاجرًا . وقد قال يومًا ليعقوب بن السكيت : أيهما أفضل ؟ ولداي هذان أم الحسن والحسين سبطا رسول الله ؟ . وكان يعقوب بن السكيت رجل صدق وأمانة . وكان عالمًا ثبتاً نحريرًا. فلم يملك أن قال للمتوكل : إن نعلي الحسن والحسين أفضل من ابنيك . فأمر به المتوكل فشدخ في الحال . ثم أرسل ديته إلى أبنائه ، كما لو قتل عنزًا أو خروفاً ثم دفع ثمنهما . وقد قُتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ قتله الغلمان الأتراك . وكان مع الذي ذكرناه عنه آخر الخلفاء ذوي المدى والندى والذين جاءوا بعده كانوا أكثرهم صنائع وألاعيب في أيدي الجند والنساء، ولا سيما في القرن الرابع . وقد بلغت بهم الحال من الارتكاس أن قتل بعضهم وسملت أعين بعضهم وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكان الأغنياء والموسرون وذوو الولايات أيضًا في الأكثر الغالب مستبدين فاجرين سريعين إلى دماء الناس . وما عليك إلا أن تنظر في كتاب ألف ليلة وليلة لترى مصداق ذلك . وقد ثار الزنج بالبصرة ثورة معروفة ولم يكونوا في ثورتهم أقل فظاعة وطغيانًا

وتعسفاً ووحشية من الرؤساء والسادة الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب . بل زادوا وأربوا عليهم بأضعاف مضاعفة . وثورة الزنج بالبصرة فيها مشابه كثيرة من ثورات العبيد بصقلية أيام الجمهورية الرومانية - وما عهد الثورتين الروسية والفرنسية منا ببعيد . وجور الخلفاء والولاة فيه مشابه كثيرة من طغيان الأباطرة الرومان وملوك أوروبا وأمرائها في القرون الوسطى وأوائل القرن الحديث وما طغيان هتلر وأضرابه في ولايات أوروبا الحديثة منا ببعيد . ونبئت أن الأمريكان البيض قد كانوا إلى أواخر القرن الماضي يطبخون عبيدهم في الماء الساخن إذا اتهموهم بالزنا أو نحوه . وقد شهدت أفريقيا أنواعًا من الفظائع والوحشية من رؤساء قبائلها وولاتها في الحاضر والغابر .

والظلم من من شيم النفوس فإن تجد   ذا عفة فلعلة لا يظلم

ولم يخرج ولاة الإسلام كما قدمت لك في مطلع حديثي ، عن سنة الظلم منذ تولي يزيد بن معاوية على أدنى تقدير . ولعلك تسألني بعد فأين كان الإسلام وعدله حينئذ ؟ وكيف كان موقفه مما تقص علينا من جور الولاة والسعاة ؟والحق أن الإسلام قد كان طوال هذه الفترة الطويلة هو عصب المجتمع ومسكته وقوامه وعزاءه . ولولا ذلك لكان الجور والظلم والاستبداد قد طوّح بالمجتمع الإسلامي كل التطويح أو ارتكس به إلى ضرب من الوثنيات الداعرة الفاجرة . وقد كان في الإسلام اتجاهان مهمان هما اللذان حفظا على مجتمعه كيانه وتماسكه فصار جور الأمراء وأصحاب السلطان والثراء طافياً فوقه كالزبد . وكان هو ماكثاً باقيًا ينفع الناس ويلم شعثهم ويشد أزرهم ويقوّي شكيمتهم ويعدهم الأمل ويحثهم على العمل . وكلا الاتجاهين كانا

يرميان إلى غرض واحد هو ابتغاء رضوان الله والاطمئنان إلى قضائه والإخبات والسكون إليه والانتظار لثوابه . أما الاتجاه الأول فاتجاه الزهد المحض والسعي إلى الدار الآخرة .

سعياً إلى الله بغير زاد

غير التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد

وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى وعمل المعاد

والجهاد عند هؤلاء قد كان هو ما أسموه الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس والشهوات . وكان لهذا الاتجاه دعاة وفرسان منذ أيام الخلافة الأولى منهم من الصحابة أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ومن تابعيهم سعيد بن المسيب والحسن البصري وممن جاءوا بعدهم رابعة العدوية وإبرهيم بن أدهم رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين . وقد آل أمر هذا الاتجاه الزاهد الرافض للملذات، إلى التصوف الخالص . وكان الغرض من هذا الاتجاه هو الانصراف عن الدنيا بالكلية والإعراض عن ملك الأرض: أليس الله عز وجل يقول : " إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدًا جرزا " والطلب الملح لملك السماء ولذات الله . وكان الداعون إلى الزهد والعاملون به لا ينفكون يذكرون الناس بأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور. وكان لهم قصاص قد أخذوا يفتنون ما شاء لهم الافتنان في تصوير أهوال الساعة وعذاب القبر وهزاهز

الحشر ومكاره العذاب الحق لأهل جهنم ، مستندين في ذلك على ما بلغهم من آثار الصحابة وأحاديث الرسول وما حفظوا من محكمات الآي ولم يكونوا يكتفون بظاهر التنزيل الرهيب في مثل هذا الباب كقوله تعالى: " خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه " أو كقوله تعالى " هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم سرابيل من نار يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق " – بل كانوا يضيفون إلى الروايات التي بلغتهم عن السلف في تأويله ضروباً من تصورات الخيال. كقولهم مثلاً إن للفساق بركة في جهنم صبت فيها أصناف السموم وأعطاها الله قوة فوق قوتها فإذا ألقي فيها المجرمون سلخت جلودهم ولحومهم سلخاً فصارت تنحسر عند أقدامهم كالثياب البالية . وفي كتاب دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار أهوال كثيرة ترعد لها الخصائل مما سيلقاه الكافرون من عذاب القبر والصراط والحافرة والسعير والزمهرير. وكله غير خارج عن معاني ما ورد في التنزيل غير أنه زركشة وتفريع وافتنان .

وكما افتنوا في تصوير أصناف العذاب التي أعدها الله للفجرة فكذلك افتنوا في تصوير أصناف النعيم وكل ذلك داخل في نطاق الآية الكريمة " وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون " من ذلك ما ذكروه من أن الحور العين أهداب عيونهن كالغابات وأرائك الجنة من لؤلؤة وياقوتة . وفيها قصور من ماء وقصور من هواء . وما دامت الجنة فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على

قلب بشر، فإن للمؤمن الصالح أن يطلق لخياله العنان ويتصور ما شاء له الخيال من الملذات الحسية والروحية .

ولم يكتف الزهاد والقصاص ودعاة الدين بهذا وحده في ترغيب الناس في الآخرة ومملكة السماء . بل ما انفكوا يبعثون في الناس الأصل ويذكرونهم كل تذكير بقوله تعالى: " اقتربت الساعة " " اقترب للناس حسابهم " " ويسألونك عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا " " فهل ينظرون إلا الساعة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم " وأمثال هذه من آيات القرآن . وصحب هذا التذكير استقراء طويل لعلامات الساعة بعضه مأخوذ من الكتاب مثل ياجوج وماجوج والدابة التي تكلم النانس وهما في قوله تعالى: " حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين ظلموا " وقوله تعالى : " وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون " . وقد وصف القصاص أحوال ياجوج وماجوج وأحوال الدابة الغريبة . قالوا مثلاً : إن ياجوج وماجوج ينسلون أفواجاً . فإذا جاء الفوج الأول شرب من بحيرية طبرية ثم يجئ الفوج الثاني فيقول كان هنا ماء. وقالوا إن الدابة تمر بالناس بينما هم في بيعهم وشرائهم فتكتب على وجه الكافر: " كافر " وتكتب على وجه المسلم: " مسلم " . فيعرف الناس بعضهم بعضاً ثم يرفع الله القرآن ثم تأتي ريح طيبة فتقبض أرواح الصالحين . ثم بعد ذلك تنشق السماء وتمور الأرض وتتزلزل وتتلهب البحار ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

ومما جاء في الأحاديث من أوصاف الساعة خروج نار من قعرة عدن ترحل الناس وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخروج الأعور الدجال ثم رجعة المسيح ثم يتصل بهذا قيام المهدي الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جورًا . وكان الناس يترقبون هذه العلامات بتطلع شديد. وإنك لتجد في أخبار ابن الأثير مما يرويه من ضمن الحوادث التأريخية ظهور طائر غريب بناحية البحرين وصياحه مرات : الله أكبر الله أكبر.

وتعددت جوانب مملكة السماء في العهد العباسي بعد أن تغلغل التصوف في النفوس . فظهرت النظريات القائلة بجواز مجئ الآخرة في الدنيا من طريق الصفاء الروحي والتطلع إلى الملأ الأعلى . ولم تخل هذه النظريات من تأثر بنظرية التناسخ ونظرية الحلول الهندية . وقد بلغت هذه الحركة قمتها بظهور الحلاج الذي ادعى أن الإله نفسه حل في جسده إذ قال: ما في الجبة إلا الله . وقد صلبه الخليفة عقابًا له على هذه الدعوى ، ولكن ذلك لم يذهب بحبه من قلوب العامة .

هذا باختصار ما كان من أمر الاتجاه الأول وهو اتجاه الزهد . أما الاتجاه الآخر فهو اتجاه الفقه . وقد كان اتجاهاً لاهوتياً يرمي إلى تفسير إرادة الله كما شاءها لأهل هذه الدنيا من أجل أن يقدروا على إدراك النجاة في الآخرة . وكان هذا الاتجاه بطبيعته ينحو إلى أن يكون عمليًا . على أنه في الواقع لم يكن عمليًا حقاً إلا من الوجهة النظرية البحتة – أي إنما كان عمليًا إذا وُجد من يعمل به. فإذا لم يوجد من يعمل به فباب التأويل والاجتهاد واسع على تقدير إمكان العمل به من الناحية النظرية البحتة . ولعل بعض الناس أن يعمل ببعضه إن لم يقدر على أن يعمل به كله. أو على الأقل ، لعل بعض الناس أن يتخذه قدوة ومثلاً مع الحرص في ذلك على أن يقترب من العمل به .

هكذا كانت حقيقة علوم الفقه والحديث وما بمجراها على وجه الإجمال . كانت علومًا مثالية تبحث في أنواع السلوك المثالية التي ينبغي عليها ابن آدم حتى تصلح حاله عند الله حاكماً كان أو محكومًا . وكانت من أجل هذا تضع العبارات والمعاملات جميعها في دائرة واحدة من دوائر البحث ، إذ كل ذلك المراد به وجه الله ، واكتساب الحسنة لديه، واجتناب السيئة دونه. ولقد كانت العبادات والمعاملات أيام الصحابة ظاهرتين متكاملتين تمثلان دينًا واحدًا . ثم أيام بني أمية افترقتا، وذلك قول معاوية إنه أراد نفسه على سنيات ابن أبي قحافة وابن الخطاب فنفرت من ذلك ثم وعد الناس كما قدمنا مؤاكلة حسنة ومشاربة حسنة. وقد اتخذت العبادات طوال أيام بني أمية طابعاً رسميًا ، إذ كان الولاة يؤمون الجمع وصلاة العيد وما بمجرى ذلك كالحج والتراويح والاستسقاء وكل ما كان من شأنه أن يظهر أبهة السلطان . أما المعاملات فكان أمرها مختلفاً. إذ كان خلفاء بني أمية يدعون لأنفسهم ولولاتهم المقدرة على الاجتهاد. وكانوا في جملتهم على صلة تامة بالفقه ولم يخل أحدهم من سماع من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم أو كان هو نفسه من هاتين الطبقتين. وقد آثروا في اجتهادهم تحكيم نوازعهم وأهوائهم وحاجتهم السياسية وأعطوا عرف القبائل الذي كان جاهليًا في سنخه المكانة الأولى . يدلك على ذلك ما تقرأه من أخبار العصبية بين قيس وتغلب ومضر واليمن . ولقد بُقرت بطون النساء وذبح الأطفال على الصفا . وقصيدة الأخطل الدامية:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأعجلتهم نوى في صرفها غير

تصف طرفاً من هذا . وداخل في باب العرف والعصبية ما نقرأه من أخبار إهدار دماء العاشقين في أمثال قصة المجنون وما نقرأه من قصص الثارات في أخبار ثوبة وهدبة وجعفر بن علبة وهلم جرا . وكان هذا كله من سياسة بني أمية واجتهادهم داعيًا لفقهاء الأمصار أن يبنوا باب المعاملات بناءً مستقلاً عما كانت تجري عليه أحوال الدولة، بناءً نظريًا مأخوذاً من الكتاب والسنة والآثار المروية عن عمر بن الخطاب وجيله الصالحين . وما إن قاربت الدولة الأموية الانتهاء حتى كانت لهؤلاء الفقهاء النظريين سمعة عظيمة وهيبة معلومة في قلوب الناس . ولقد كان بنوا أمية أنفسهم يحتاجون إلى أن يرجعوا إليهم أحياناً ليكشفوا لهم ضروبًا من الفتوى والتأويل .

ولما جاءت الدولة العباسية ظلت الحال مستمرة فيها أول أعوامها على ما كانت عليه في دولة بني أمية ، إلى أن تولى أبو جعفر . فبدا له أن ينظم السلطان على نهج جديد وأن يُبدي شيئاً من الاعتراف الرسمي بما قد آلت إليه حال العلماء الرسميين من الهيبة والجلال . والحق أنه قد سبقه إلى نوع من الاعتراف هشام بن عبدالملك الأموي . ولكن ما فعله أبو جعفر كان أصرح وأبقى. إذ قد اعترف للإمام مالك في إشارته المشهورة له بأن يضع الموطأ ، بما يشعر المرء منه أنه لم يعد يثق بقدرة الخلفاء من بعده على الاجتهاد .

ومنذ ذلك الحين وجد العلماء أنفسهم بعد أن كانوا في جملتهم نظريين وجهاً لوجه أمام الأمور السلطانية والمشاكل الواقعية. فانقسموا طبقتين ، أحداهما قبلت أن تعمل للسلطان ، والأخرى نفرت من ذلك نفورًا شديدًا .

ومع أن انضواء جماعة العلماء في خدمة السلطان كان من شأنه أن يقرب بالفقه في جملته من الأمور الدنيوية ويشذب عنه النظريات المحضة ، ظل نفور الفقهاء المخلصين من عمل السلطان يلبس الفقه في جملته طابعه النظري الأصلي . زد على ذلك أن جور السلطان كان من شأنه أن يستمر محتفظاً ببعد الشقة بين حقيقة الأحكام الشرعية والأحكام السلطانية. إذ حقيقة الأحكام الشرعية مبنية على محاذرة اليوم الآخر ومراقبة الله . والمجرم إن لم يقع عليه العقاب في هذه الدنيا فإنه واقع عليه في الآخرة ، وإن شاء الله تداركه بالتوبة وغفر له إنه يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم.

وقد جعل بعض المفكرين في أواخر القرن الثالث يتعجبون إن كان الفقه النظري حقاً سيؤدي إلى إصلاح العالم كما كانوا يرجونه ؟ فجعل هؤلاء يهاجمون الفقه نفسه ويزعمون لأصحابه فساد الرأي ومن تولى عمل السلطان منهم وصموه بفساد النفس . وأخذ بعض هؤلاء يدعون الناس إلى أهواء جديدة ونحل جديدة . فنشأ مذهب القرامطة الإلحادي الصبغة ونشأت بعده عدة مذاهب تشبهه.

وبعد أن أوصد باب الاجتهاد في القرن الثالث ، جعل يدب إلى سائر علوم الفقه النظري جفاف شديد يصحبه يأس شديد . وهما اضطر المفكرون الدينيون إلى تقريب وجهات النظر، بين نظريات التصوف التي بلغت ذروتها بصلب الحلاج ، ونظريات الفقه التي بلغت ذروتها باستبسال أحمد بن حنبل ورضاه بالجلد والتعذيب دون عقيدته السلفية.

وفي أواخر القرن الخامس إلى السادس أتيح للناس أبو حامد الغزالي . وهذا قد كان مهد له الأخلاقيون فالمفكرون المختلفون الذين

شهدهم القرن الرابع . وقد قال الغزالي بلهجة صريحة إن السلطان جائر، وإن السبيل إلى إصلاحه عسير بل متعذر، وأن سبيل الخلاص في الرضا والتسليم لقضاء الله والعمل بمذهب الشريعة وبأذواق المتصوفة من أهل الحقيقة. وكتاب إحياء علوم الدين رسالة عظيمة في ازدراء الدنيا ومتاعها كما هو تحليل دقيق لأخلاق ذلك العصر ولأخلاق البشر بوجه عام. وقد حاول الغزالي في قسم المنجيات أن يبين وسائل مختلفة ربما قدر بها المرء أن ينتفع بدنياه لينجو في آخرته. وقد نبه الغزالي على أهمية التصوف العملية بإشاراته الكثيرة إلى الوجه المثلى في علاقة الشيخ بالمريد وأساليب التأدب والتعلم والسلوك.

وبعد الغزالي بزمان غير طويل جاء الولي الكبير الشيخ عبدالقادر الجيلاني . فضرب للناس مثلاً حياً في الجمع بين الحقيقة والشريعة . وكان له مقدرة عظيمة على التنظيم . فأنشأ تكايا أفاد منها العامة غاية الإفادة . ومن بعده تفرعت أصناف الطرق الصوفية على المنهج الذي خطه، وما منها إلا من ينتسب إليه من قريب أو بعيد.

وقر المجتمع الإسلامي في جملته على الرضا بقضاء الله والتماس العزاء في مجرى الشريعة والحقيقة وقبول الافتراق الأبدي بين جور السلطان وانتظار رحمة الرحمن . جور السلطان يمثله السلطان والجند والعمال وانتظار رحمة الرحمن يمثلها مشائخ الطرق وفقهاء القرى . وما انفكت الحال هكذا حتى انتهت خلافة بغداد وقام سلطان العثمانيين بالأناضول أنواع الولايات في أرجاء العالم الإسلامي.

وهكذا انتابت المجتمع المسلم كله حال من الإخلاد إلى الرتابة التي تهيمن على كل مجتمع ظن أنه قد بلغ غاية مطافه ، وخلق لنفسه فلسفة تهون عليه حمل أعباء الدنيا ونضالها .

ولعل المجتمع الإسلامي كان يبقى أبد الآبدين على هذه الحال لو استمر ولاته منصورين في دار الحرب أو ظلت الحرب سجالاً بينهم وبين الأعداء . ولكن الأوضاع في دار الحرب قد بدأت تتغير تغيرًا جوهريًا منذ مطلع القرن الخامس عشر. وما إن استدار ذلك القرن إلى نهايته حتى وجد المسلمون أنفسهم قد جاءهم العدو من خلفهم من حيث لم يحتسبوا . إذ قد عبر البرتغاليون بحر الظلمات إلى الهند واستولوا على شواطئ افريقية الشرقية . وإذ قد انصب الاسبانيون بعد أن أجلوا آخر المسلمين من جزيرة الأندلس ، على المغرب، وإذ قد انكسر الأسطول التركي في لبنانتو انكسارًا ذريعاً مريعاً.

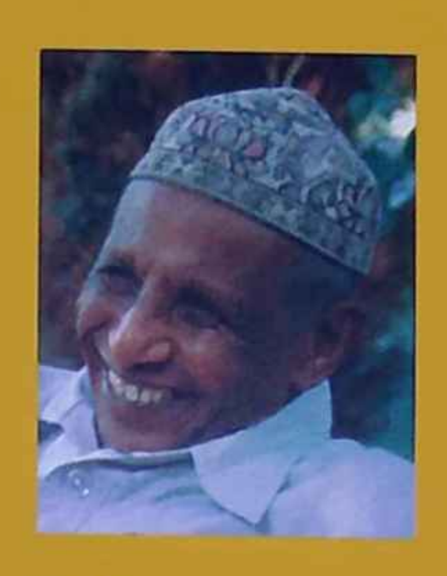
وكان تفوق أوروبا الحربي حقيقة لا يتطرق إليها الشك عند مطلع القرن التاسع عشر. وكان القلق ينتظم بلاد الإسلام من أقصاها إلى أقصاها : الهوسا والمدنقو في المغرب، الذين غربتهم سطوة أوروبا إلى آفاق أمريكا حيث صاروا أرقاء ؟ والهنود في المشرق إذ اكتسحهم بأس أوروبا حتى جعلهم رعية سواء هم والهندوس الكفار وقد كانوا من قبل سادة أعزاء ، والعرب في جنوب الجزيرة إذ رأوا بأس أساطيل أوروبا في بحارٍ كانت خالصة لهم لم ينازعهم فيها منازع منذ أيام الرومان واليونان.

ومنذ ذلك الحين جعل توازن المجتمع الإسلامي يختل : ذلك التوازن الذي فرضته على المسلمين فلسفة كيانهم المبني على الرضا

بقضاء الرحمن ، والثقة بعدله حين يجور السلطان ، والتماس العــزاء عند العلماء من قراء ومتصوفة ودراويش وأولياء ، والانتظار العميــق لعلامات الساعة على رأسها الأعــور الــدجال، والمهــدي المنتظــر، والمسيح والدابة التي تكلم الناس ، وغير ذلك من العلامات .

***

الفهرس



بروفيسور عبدالله الطيب

ولد بغرب الدامر 1921

نال الدكتوراة من جامعة لندن 1950

عمل بالتدريس بأم درمان الأهلية وكلية غردون وبخت الرضا

تولي عمادة كلية الآداب جامعة الخرطوم 1961 - 1974

عمل عضوا عاملا بالمجمع اللغوي بالقاهرة 1961

تولى تأسيس كلية عبدالله بابيرو بكانو بنيجريا 1966

عمل مديراً لجامعة الخرطوم 1974 - 1975

تولى إدارة تأسيس جامعة جوبا 1975 - 1976

عين أستاذاً مدى الحياة بجامعة الخرطوم 1979

أولى رئيس لمجمع اللغة العربية منذ تأسيسه 1990 وحتى وفاته

عمل أستاذاً للغة العربية في جامعة سيدي محمد بن عبدالله بفأس بالمغرب 1977 - 1986

توفي 19 يونيو 2003م

